الشّيعة في الأندلُس

الخلافة الحموديّة العلويّة

د. كاظم شمهود طاهر

مؤسسة الصّفاء للمطبوعات
لبنان

دار الكتاب العربي
بغداد

الشّيعَة في الأندَلُس

الخلافة الحموديّة العلويّة

الطبعة الأولى

٢٠١٠م / ١٤٣١هـ



دار الكتاب العربي

بغداد ـ شارع المتنبي

هاتف: ٤١٥٤٥٦١ـ موبايل: ٠٧٩٠١٤١٩٣٧٥

الشّيعَة في الأندَلُس

الخلافة الحموديّة العلويّة

د. كاظم شمهود طاهر

دار الكتاب العربي
بغداد

مؤسسة الصفاء للمطبوعات
لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الأقوام الأولى التي استوطنت شبه الجزيرة

كشفت الدراسات العلمية والتنقيبات الحديثة التي أجراها علماء الآثار في جميع مناطق اسبانيا، بأن الأقوام الأولى التي استوطنت شبه الجزيرة هم الأيبيريون **Iberos** الذين جاءوا من أفريقيا والذين هم أساس جنس البحر المتوسط، وقد استقروا في الجنوب والجنوب الشرقي منها، ثم أقوام ثيلتاس **Celtas** والهندو ـ أوربية الذين عبروا جبال البرت (البرنية) **Pirineos** واستوطنوا في الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من شبه الجزيرة.

ثم جاء الفينيقيون الأوائل من المشرق ـ وهم من الكنعانيين ـ الذين سكنوا بلاد الشام وسواحلها في حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وقيل في مصدر آخر في القرن العاشر قبل الميلاد، وبنوا لهم مستعمرات في المناطق الساحلية الشرقية والجنوبية ثم توغلوا إلى الداخل وأسسوا مدناً كثيرة منها قرطبة وأشبيلية وقادش وملقا وغيرها، كما ذكرت بعض المصادر الأسبانية بأن طليطلة قد أنشأتها فرقة عسكرية كانت قادمة من المشرق في زمن ملك بابل نبوخذ نصر واستقرت على ضفاف نهر التاجة (**El Tajo**). وبعد الفينيقيون جاء اليونان ثم الرومان الذين قاموا بشق الطرق وبناء الجسور والحصون والمدن وقسموا شبه الجزيرة إلى أربعة ولايات إدارية كبيرة، وعندما جاء العرب أضافوا إليها ولاية خامسة والتي تقع في شمال جبال البرت (البرنيه ـ **Pirineos**) من أراضي الأفرنج، حيث كانت جنوب فرنسا خاضعة لحكم العرب.

ثم جاء فينيقيو قرطاجنة (تونس) في حوالي القرن الخامس قبل الميلاد واستقروا في السواحل الشرقية وأنشأوا عدداً من المرافئ والمدن منها مدينة قرطاجنة والتي تسمى اليوم في اللغة الاسبانية (كارتاخينا ـ **Cartagena**) وكان من أشهر ملوكهم هانيبال الذي تقدم بجيوشه نحو روما عبر اسبانيا مخترقاً جبال البرت (البرنيه).

ثم نزلت قبائل القوط الجرمانية من الشمال وسيطرت على أملاك الدولة الرومانية

في أوائل القرن الخامس الميلادي، فاقتسمت هذه القبائل أملاك روما الغربية واستولت على ايطاليا وفرنسا واسبانيا، وكانت اسبانيا من نصيب القوط، ثم جاءت قبائل جرمانية أخرى تسمى الوندال وسيطرت على اسبانيا، وكانت هذه القبائل الجرمانية القوطية والوندالية تشترك في العادات والتقاليد والدين مما يشير إلى أنهما يرجعان إلى جنس واحد.

ثم عاد القوط مرة أخرى للسيطرة على اسبانيا بعد أن انتزعتها من الوندال في نهاية القرن الخامس الميلادي وقد اعتنقوا النصرانية منذ أواخر القرن الرابع الميلادي، ولبث القوط زهاء قرنين في اسبانيا حتى الفتح الإسلامي.

وذكر بعض المؤرخين بأن شبه الجزيرة كانت تسمى في الأزمان القديمة ايباريه ولكن الرومان أطلقوا عليها اسم اسبانيا (Hispania) ومن هنا جاء اللفظ - اشبانيه - أو أصبانيه - وفي لغة القرون الوسطى تحول اللفظ إلى Espana ومنه اشتقت الكلمة الانكليزية Spain. أما مصطلح الأندلس الذي يطلق على الأراضي التي سيطر عليها المسلمون من شبه الجزيرة فقد اشتقه الجغرافيون والمؤرخون العرب من الأسماء التالية: الأندليس أو الأندلش أو الأندلس، وهي الأسماء التي اعطيت للوندال الذين سيطروا على اسبانيا قبل القوط الجدد، كما تذكر رواية أخرى بأن (أندلس) مشتقة من (فاندولوسيا) أي بلد الوندال وسميت اسبانيا آنذاك باسم فاندولوسيا، وذكر المؤرخ ضياء باشا وكان وزيراً في الحكومة العثمانية بأن هناك رواية تقول أن كلمة (أندلس) تعني في اللغة الفينيقية مكتوم أطلقها الفينيقيون على كل أرض جديدة يكتشفونها والتي كانوا يحتفظون وحدهم بسرها.

ويذكر صاحب كتاب الروض المعطار الحميري بأن الأندلس كانت تسمى في القديم - أباريه - ويعني ذلك - ايبريه - ثم سميت باطقة ثم سميت اشبانيا من اسم رجل ملكها في القديم كان اسمه اشبان وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش الذين سكنوها، وهكذا نجد أنفسنا أحياناً أمام روايات كثيرة معظمها يطغى عليه طابع الخرافة وعدم الدقة العلمية، أما بالنسبة للأقوام التي سكنتها فهناك اكتشافات وتنقيبات علمية أثبتت بالقطع من خلال الآثار عن أصل وأسماء الأقوام الأوائل التي سكنتها.

يذكر بأن قرطبة أصلها ايبيري بدليل التماثيل البرونزية الايبيرية التي كشف عنها البحث الأثري في أرضها بالاضافة إلى أسمها محرف من كردوبا ـ Corduba ـ وهو اسم ايبيري بحت يتشابه في مقاطعه مع أسماء بعض مدن أخرى ثبت أنها ايبيرية مثل سلدوبا Salduba وهو الاسم القديم الذي كانت تعرف به سرقسطة قبل أن يعيد أغسطس قيصر بناءها فيما يقارب من عام ٢٣ق.م ويسميها قيصر اوجستا الذي عرب بدوره إلى سرقسطة.

إذن قرطبة وسرقسطة هما من أصل ايبيري أسستها الأقوام التي قدمت من شمال أفريقيا أو المشرق. هذا الاستعراض السريع والموجز للأقوام التي استوطنت شبه الجزيرة يبين لنا بأن المسلمين كانوا آخر الأقوام التي سكنتها وعمرتها وهم عصارة الحضارة القديمة وثمرة الاختلاط البشري والجنسي من ثلتاس وايبيريه وفينيقيين واغريق وروما ن وجرمان وقوط وعرب وبربر (مسلمين)، كل هذه الأمم ساهمت في بناء صرح حضارة شبه الجزيرة، ولكن مع الأسف هناك من المؤرخين العرب المعاصرين من يقول أن الأسبان قد استرجعوا أراضيهم وطردوا المسلمين منها متأثرين بآراء الغربيين حيث ذلك الرأي الذي يطبع النقد الغربي دائماً في كثير من المواطن والذي هو ناتج عن نزعة التعصب الديني والجنسي وهم يسمونه في كتبهم بحرب الاسترداد ـ La reconquista ـ ويذكر العلامة والمؤرخ الاسباني التاميرا Altamira في كتابه (Historia de España y la civilizacion) (تاريخ اسبانيا والحضارة) بأن الشعب الاسباني كان غالبيته من الرومان والقوط وقد ظلوا في ظل الحكم الإسلامي محتفظين برؤسائهم وهم الأقباط وأساقفتهم وكنائسهم، كما يذكر بأن القوط كانوا أقلية بالنسبة إلى سكان شبه الجزيرة الذي يتكون من الرومان والأسبان الأصليين أي من الأقوام السابقة.

وهذه إشارة إلى أن الأمة الاسبانية كانت خليطاً بشرياً من رومان وقوط جاءوا من مناطق جغرافية بعيدة عن شبه الجزيرة. هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى إن حرب (الاسترداد) ساهمت بها جيوش أوربية بدعم مباشر من الكنيسة، كما أن طرد المسلمين من اسبانيا أو تحويلهم إلى نصارى يتم على يد ملوك نمساويين سيطروا على اسبانيا مثل كارلوس الأول وفيليب الثاني وفيليب الثالث، لهذا فقد عاد الجرمان إلى اسبانيا مرة أخرى بعد أن أخرجوا العرب والمسلمين منها.

إذن ما هو معنى حرب (الاسترداد ؟)، ومن هم الذين قاموا بها ؟، هل هم الرومان والقوط أم سكان البلاد القدامى من فينيقيين وايبيريين وثلتاس؟. لهذا اعتقد أن هناك عدم انصاف في تشخيص وتحليل الأمور وهو مع الأسف تأثر المؤرخين العرب والمسلمين المعاصرين بآراء الغربيين الذين تسودهم نزعة التعصب الديني والجنسي. ولنضرب مثلا آخر : المعروف أن العرب قد أسسوا مدناً كثيرة في اسبانيا ومنها مدريد العاصمة الحالية، ولكن المؤرخين الاسبان بقوا قروناً يدونون في كتبهم بأن مدريد أسسها النصارى، إلى أن جاء المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في مطلع القرن العشرين واطلع على المخطوطات العربية ومنها كتاب الروض المعطار للحميري فنشر مقالة يشير بها إلى أصل مدريد وأن الأمير محمد الأول هو الذي أمر بإنشائها حوالي سنة ٨٧١ ثم نشرت المقالة نفسها في أحدى الصحف الاسبانية في الثلاثينات وبذلك نسفت فكرة إنشاءها من قبل النصارى والتي كانت سائدة عند الناس عدة قرون.

الواقع أن العرب والمسلمين هم جزء من التاريخ الاسباني العريق وهم حلقة حضارية متطورة. فقد كانت جامعات الأندلس مناراً للعلم في أوربا وكان الملوك الأوربيين يبعثون أبنائهم لدراسة مختلف العلوم والآداب في جامعات قرطبة، كما فعل أحد ملوك انكلترا عندما أرسل بعثة تتكون من أبناء الأشراف والأمراء الانكليز إلى قرطبة في زمن الحكم بن عبد الرحمن الناصر لدراسة العلوم والموسيقى وغيرها.

ولكن النصارى عندما احتلوا اسبانيا وأخرجوا المسلمين منها عمدوا أولاً إلى إحراق المخطوطات العربية كما عمدوا إلى إحراق الوثائق التي تشير إلى أملاك المسلمين وأراضيهم وقصورهم ومدنهم وقراهم التي عمروها وشيدوها، وبذلك فقد طمسوا هوية البلاد وضيعوها فأصبحت وكأنها مجهولة الهوية. ثم سجلوها بأسماء القساوسة والقواد والنبلاء وكأنهم هم أصحابها الأصليين ثم خيروا الناس المسلمين بين التنصير أو القتل أو الهجرة، ويذكر المؤرخون بأن الكاردينال خمينث ثيسنيروس قد جمع مئات المخطوطات الإسلامية وقيل نصف مليون في أحدى الساحات في غرناطة وأحرقها، وبذلك ضاعت ثروة علمية تعتبر عصارة الحضارة الإنسانية، ولازال عدد من المخطوطات العربية موجوداً في مكتبة الاسكريال شمال مدريد تقدر بحوالي ٢٠٠٠ مخطوطة وقد زرت المكتبة واطلعت على بعض هذه المخطوطات والتي تحتوي

على مختلف العلوم، وكانت الاسكريال هي الأخرى تعرضت إلى حريق كبير في سنة ١٦٧١ وذهبت آلاف المخطوطات العربية ولم ينقذ منها إلا العدد المذكور سابقاً.

ولازالت ثقافة العرب وتقاليدهم وعاداتهم موجودة في الجنوب الأندلسي ولازالت أسماء المدن والأنهار والقرى والحصون بأسمائها العربية وحتى أسماء وألقاب بعض العوائل الاسبانية، كما يذكر بأن هناك آلاف الكلمات العربية موجودة في اللغة الاسبانية وقد ذكر منها الأستاذ محمود علي مكي في كتابه (مدخل لدراسة الأعلام الجغرافية ذات الاصول العربية في اسبانيا).

وفي زمن العرب تألقت الأندلس وأصبحت مهد الحياة الرفيعة ومصدر الحضارة الإنسانية وموطن الفلاسفة والعلماء والشعراء ومركز الفنون والآداب، وكانت أغنى دول أوربا وأكثرها ثراءً ورخاءً، كما كانت قرطبة في عهد الناصر وأبناءه أكثر مدن أوربا سكاناً، وقد بلغت في عهد الخلافة الأموية تطوراً عمرانياً لا مثيل له في دول الغرب المعاصر التي كانت ترزح في ظلمات الجهل والانحطاط والفقر، وكانت شوارع قرطبة مرصوفة بالحجارة وكانت النفايات تنقلها العربات التي تجرها الثيران خارج المدينة كما كانت شوارعها مضاءةً ليلاً.

بينما كانت باريس ولندن شوارعها مملوءة بالوحل والأوساخ وأهلها يسودهم التخلف والفقر، كما كانت المجتمعات الأوربية في ذلك الوقت في عصور مظلمة تمزقها الحروب والفتن وتسيطر عليها الخرافات والشعوذة الدينية والأمراض القاتلة وفي سنة ١٣٤٢ انتشر مرض الطاعون في أوربا وقضى على نصف سكانها حسب المؤرخين الأجانب بينما كانت الأندلس تتمتع بحياة آمنة صحيحة مستقرة ويعود الفضل إلى علماء الطب المسلمين وانتشار المستشفيات في كل بقعة من أرض الأندلس.

ولأجل إخراج أوربا من هذه الأزمة والمستنقع المتخلف كان عليها أن تجيش الجيوش للسيطرة على الأندلس الغنية وإخراج المسلمين منها، لهذا كانت الحرب ضد المسلمين هي في الواقع تعود إلى عوامل اقتصادية مادية بحتة وعوامل نفوذ وسيطرة وسلطة واستعمار وليس للدين المسيحي علاقة بهذه الحروب الدموية القذرة، وهو ما نراه اليوم من سيطرة أمريكا وأوربا على منابع النفط في الدول العربية وإخضاعها

لإرادتها وسياستها وتأسيس قواعدها العسكرية هناك لتأمين تدفق النفط إليها، كما عمدت إلى جعل الدول العربية سوقاً تجارياً لتصدير منتجاتها الصناعية والزراعية والعسكرية وعدم السماح لها بالتطور التكنولوجي والمدني بدليل حربها المعلنة دون خجل مع إيران المسلمة.

إذن كانت الحرب ضد الأندلس هي حرب اقتصادية وسلطوية كما يشير إلى ذلك كثير من المؤرخين والمحللين، فباسم الصليب احتلت الأراضي الأندلسية وشرد وقتل ملايين المسلمين واليهود وباسم الصليب أجبر المسلمين واليهود على التنصير وباسم الصليب منع الأندلسيين من التحدث باللغة العربية والتخلي عن تقاليدهم وعاداتهم وأجبروا على تغيير ملابسهم. وباسم الصليب أخذت القصور وصودرت الأراضي والحصون والمدن وأحرقت المخطوطات العلمية والأدبية والفلسفية كما أحرقت الوثائق التي تبين أملاك المسلمين، ثم سجلت هذه الأراضي والقصور بأسماء القساوسة والقواد والأمراء النصارى.

ويذكر المؤرخون بأن القساوسة أصبحوا بعد احتلال الأندلس من أغنى رجال أوربا وأكثرهم ثراءً وأبهة ولدينا دليل أثري واضح وهو بلاط الكاردينال خمينث ثيسنيروس الذي لازال موجوداً في مدريد في الشارع الكبير (C\Mayor) ويعد هذا القصر من أفخم القصور في ذلك الوقت، وكان القساوسة في الواقع قواد جيوش وحرب ورجال بطش ودماء قد لبسوا الصليب لإثارة عواطف الناس من البسطاء والفقراء.

وما فعله الصليبيون في الأندلس عادوا وفعلوه اليوم في البوسنة والهرسك، فقد شن الصرب حرباً صليبية دموية على مسلمي يوغسلافيا بدأت من سنة ١٩٩٢ إلى سنة ١٩٩٥ ، وقد نقلت الصحف العالمية هذه المجازر والمذابح الدموية وسط مرأى ومسمع حكومات الدول الأوربية دون محاولة لإيقافها مع العلم أنها قادرة على ذلك.

فقد هُجر وشُرّد مليوني شخص وقُتل أكثر من مائة ألف مسلم وأربعين ألف حالة اغتصاب وثلاثين ألف مفقود، هذا ما أعلنته بعض الصحف المعتدلة أما الحقائق المرعبة فلازالت غير معلنة، وأخيراً حصروا البقية الباقية في رقعة جغرافية صغيرة تمهيداً لإخراجهم نهائياً من يوغسلافيا، وهو ما فعلوه بآخر إمارة أندلسية وهي إمارة غرناطة حيث حاصروها وأخرجوا منها آخر ملوك الأندلس عبد الله الصغير سنة ١٤٩٢ .

الفتح الاسلامي للأندلس

و نهاية موسى بن نصير وطارق بن زياد

يعتبر موسى بن نصير من أعظم الزعماء والقادة المسلمين وهو من التابعين، ولد في السنة التاسعة عشر من الهجرة في زمن خلافة عمر بن الخطاب ويقال في وادي القرى في شمال الحجاز، وينتسب إلى بكر بن وائل ولكن يذكر الواقدي والكلبي بأن موسى كان من أراشة من قبيلة بليّ، وقيل ينتسب بطريق الولاء إلى بني لخم وأن أباه نصيراً كان ممن سباهم خالد بن الوليد في موقعة عين التمر في العراق سنة ١٢ هجرية، وأن أباه كان ممن حرس معاوية بن أبي سفيان ثم وصيفاً لعبد العزيز بن مروان فاعتقه.

والى موسى بن نصير يرجع الفضل الأول في عبور الإسلام إلى أوربا في الغرب وقيام دولته فيها، وكان منصبه المهم والأول كان في مصر عندما رافق الخليفة مروان بن الحكم في حملته هناك سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م فقد عينه الأخير مستشاراً ووزيراً لابنه عبد العزيز الذي أصبح والياً على مصر، ونتيجة لكفاءته ومقدرته العالية أسند إليه عبد الملك بن مروان الإشراف على خراج البصرة ولما ولي الحجاج العراق سنة ٧٥ اتهم موسى باختلاس أموال البصرة ولم ينقذه من بطش الحجاج سوى تدخل الأمير عبد العزيز بن مروان صديقه الحميم.

وبقي موسى في مصر مع عبد العزيز بن مروان يتبوأ لديه أعلى مراتب الثقة والنفوذ حتى عين والياً على أفريقيا واستطاع موسى بشجاعته وحسن إدارته ومهارته السيطرة على ثورات البربر وإخمادها ومن ثم سيطر على جميع أنحاء المغرب يساعده في ذلك قادة أكفاء ومحنكين من البربر والعرب ومنهم طارق بن زياد والذي عينه موسى والياً على طنجة ونواحيها.

وكان طارق جندياً عظيماً ظهر ذلك بغزواته المغرب بكفاءة وشجاعة وبراعة. وقدر موسى مواهبه ومقدرته واختاره لفتح الأندلس. ونزل طارق البقعة الصخرية المقابلة للمغرب والتي أخذت اسمه بعد ذلك أي جبل طارق، في الخامس من رجب

سنة ٩٢هـ/ ٢٧أبريل سنة ٧١١م، في زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك، وتذكر بعض المصادر أن طارق من أب عربي وأم بربرية ولكن جلها ترى أنه من أصل بربري وأنه من قبيلة نفزة البربرية.

وزحف طارق على الأندلس وفتحها ثم تبعه موسى وعبر المضيق وبدأ بإكمال الفتح، ووضع الاثنان خطة لافتتاح ما تبقى من اسبانيا ثم زحفا نحو الشمال ثم انقسما إلى جيشين أحدهما اتجه نحو الغرب إلى جليقية Galicia بقياد طارق والآخر نحو الشرق إلى جبال البرنية (أو البرت أو البرتات أو الممرات) بقيادة موسى، ويقال أن الاثنان تعاونا في فتح جليقية.

وعندما رأى موسى أن الحصون والمدن النصرانية أخذت تسقط الواحدة تلو الأخرى وأن أهلها أخذوا يطلبون الأمان وأن ملوكها هربوا أو قتلوا دخل مملكة الإفرنج حتى وصل مدينة لوطون ـ أو ليون ـ وسيطر العرب على جنوب فرنسا وتحصنوا بها، وهنا فكر القائد أن يخترق بجيشه أوربا وأن يصل إلى الشام عن طريق القسطنطينية، ويقول ابن خلدون: (وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ويخوض ما بينهما من بلاد الأعاجم أمم النصارى مجاهداً فيهم مستلحماً لهم أن يلحق بدار الخلافة).

وكان من القادة الكبار الذين يرافقون موسى بن نصير حنش بن عبد الله الصنعاني وكان من التابعين ويذكر أنه كان من تلاميذ الإمام علي (ع) ومن الذين أخذوا العلوم منه وقد حارب إلى جانبه وكان موالياً له، وقد اتخذه موسى عوناً وناصحاً ومستشاراً له، وعندما فتحت سرقسطة أبوابها إلى موسى بن نصير دون قتال، قام حنش الصنعاني بتأسيس أول مسجد في سرقسطة وهو الجامع الكبير وركز قبلته، وذكر ذلك الخبر ابن الغرقمي في تاريخ علماء الأندلس والحميري في صفة جزيرة الأندلس، والمقري في ـ نفح الطيب ـ.

وبعد أن سيطر موسى على سرقسطة اندفع إلى الشمال أكثر فاعترضه بعض القادة وطلبوا منه التريث لأن الجيش تعب وملّ من التقدم إلى عوالم مجهولة غير معروفة بجغرافيتها وأهلها، ويذكر أن حنش الصنعاني قد نصح موسى بعدم التقدم أكثر قائلاً له: (أين تذهب تريد أن تخرج من الدنيا أو تلتمس أكثر وأعظم مما أعطاك الله،

وأعرض مما فتح الله عليك، ودوخ لك إني سمعت من الناس ما لا تسمع، وقد ملوا أيديهم وأحبوا الدعة).

وقد نقل الخبر ابن قتيبة في (الإمامة والسياسة) ويقال أن موسى ضحك لذلك ثم انصرف حنش الصنعاني إلى سرقسطة. وتذكر بعض المصادر انه تولى إدارتها وما حولها، وتوفى فيها ودفن في مقبرة تسمى القبلة. ولكن موسى أصر على فتح المناطق الشمالية وجليقية الغربية، حتى سيطر جيشه على جميع مناطق اسبانيا ووصل إلى (لُك ـ Lugo) في (جليقية ـ Galicia) حيث جاءه رسول الخليفة يحثه على العودة إلى دمشق.

استدعاء موسى وطارق إلى دمشق

بينما كان موسى وطارق يتقدمان بجيشهما العظيم نحو الشمال فاتحين المدن والحصون والقلاع، حتى وصلا (خيخون) واتخذها موسى قاعدة لجيشه وعين عليها قائداً بربرياً هو منوسه وقيل أن طارق هو الذي عينه، ثم أصبح هذا القائد يشرف على كل المناطق الشمالية من جبال البرنيه إلى جليقية Galicia في المحيط الأطلسي وفي أثناء ذلك عادا إلى دمشق مغيث الرومي وعلي بن رباح اللخمي وكان من قواد موسى وأخبرا الخليفة بالفتح وتفاصيله، وبينما كان موسى في الشمال لإكمال الفتح جاءه رسول الخليفة مغيث الرومي يأمره بالخروج من الأندلس والكف عن التوسع في البلاد، غير أن موسى استطاع إقناع الرومي بأن يمهله قليلاً حتى يتم فتح جليقية ووعده أن يكون شريكه في الغنائم فقبل المغيث الرومي ذلك وتقدم موسى نحو جليقية ووصل إلى (لُك ـ Lugo) وبينما هو في ذلك جاءه رسول ثاني من الخليفة يدعى (أبا نصر) يحثه على العودة بأمر من الخليفة، ولم يجد موسى بداً من العودة منصرفاً من الثغر الأعلى وكان معه طارق بن زياد ورسولا الخليفة، فوصلا طليطلة ثم اتجهوا إلى قرطبة بعد ذلك إلى أشبيلية التي اتخذها المسلمون في بادئ الأمر عاصمة للدولة الإسلامية في الأندلس وقد استخلف موسى ابنه عبد العزيز سنة ٩٥هـ والياً على الأندلس وابنه الأكبر عبد الله على أفريقيا وابنه مروان على طنجة والسوس.

ثم مضى إلى دمشق عبر مصر ومعه طارق وهما يحملان معهما الغنائم ويجران خلفهما

موكباً طويلاً من قواد المسلمين ورؤساء القوط المغلوبين، ويذكر أن مغيث الرومي كان من أصل بيزنطي وقيل أنه كان مولى عبد الملك بن مروان وكان المغيث يحقد على موسى وطارق ويسعى إلى منافستهما والإيقاع بهما، وكانت لوقعته ومساعيه ضدهما أكبر الأثر في استدعائهما إلى دمشق، وأحس موسى بما وراء هذه الدعوة وعرف أن مغيثاً كان قد نقل أخباراً خاطئة وخبيثة إلى الخليفة، وذكر بأن الوليد بن عبد الملك كان مريضاً فكتب أخوه سليمان إلى موسى يأمره بالإبطاء رجاء أن يموت الوليد قبل قدوم موسى، فيقدم موسى على سليمان في أول خلافته بتلك الغنائم فيعظم بذلك مقامه عند الناس، فأبى موسى أن يفعل ذلك وجد في السير حتى وصل دمشق والوليد حي فسلم إليه الأخماس والغنائم والتحف والذخائر، وقد وصل موسى إلى دمشق قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً سنة ٧١٥م، أي بعد أربع سنوات من الفتح.

وبعد وفاة الوليد أفضت الخلافة إلى سليمان فحقد على موسى وصب عليه غضبه فعزله من أعماله وأقصاه وأدخله السجن وفرض عليه غرامة كبيرة وعظيمة، وقتل ابنه عبد العزيز والي الأندلس وأقصى أبناءه الآخرين من الحكم وعاملهم معاملة سيئة جداً واتهم موسى باختلاس مقادير عظيمة من الأموال والتحف وقضى عليه بردها وبالغ بإهانة موسى وتعذيبه، واستجار موسى بصديقه القديم يزيد بن المهلب من نقمة سليمان فخفف عنه بعض عقوبته ولكنه لم يعفيه عن الغرامة، وتذكر بعض المصادر أن سليمان أصر على معاقبة موسى وتغريمه حتى كان يطوف أحياء العرب مع حراسه ليسأل بعض المال ليفتدي نفسه وأنه لبث على تلك الحال حتى توفي في منتهى البؤس والذلة بوادي القرى في شمال الحجاز حيث ينسب مولده سنة٩٧هـ وقيل ٩٦هـ/ ٧١٤م، كما يذكر أن موسى توفي في طريقه إلى الحج، وليس بعيداً أنه قتل من قبل سليمان بعدما قتل ابنه عبد العزيز. وكان قد همّ سابقا في قتله لولا وساطة يزيد بن المهلب، وقد تجاوز موسى الثمانين من العمر.

ويذكر أن من الأسباب التي دعت الخليفة إلى استدعاء موسى وطارق إلى دمشق والكف عن توسع الفتوحات هي خشية الوليد من نزوع موسى إلى الاستقلال بالأندلس وأنه بعيداً عن دمشق، كما أن الأموال والغنائم الكبيرة التي حصل عليها موسى هي الأخرى أصبحت مصدر قلق ولا بد من قدومها إلى دمشق بأسرع وقت،

كما رأى الوليد أن موسى أخذ يتصرف هناك باستقلالية وانه تخطى سلطة الخلافة، ولكن أكثر المحللين يذكرون بأن الوليد كان خائفاً من أن يفكر موسى بما عرف من طمعه ودهائه في الاستقلال بذلك المُلك.

هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى والتي يغفل عنها غالبية المؤرخين ويهملونها ولا يذكرونها بشكل صريح وواضح، وهي أن بعض المؤرخين يذكرون بأن نصيراً والد موسى كان من الذين اعترضوا على معاوية في حربه مع الإمام علي ﵇ وأنه خالفه في ذلك وقيل أنه كان موالياً للإمام علي ﵇ ولكن يكتم ذلك.

ثم أن من أكبر قادة جيش موسى بن نصير ومستشاريه هو حنش بن عبد الله الصنعاني وهو تلميذ الإمام علي ﵇ وتعلم علي يديه علوم الفقه والحديث ومن الذين حاربوا إلى جانبه ضد معاوية وغيره، كما يعود له الفضل في تأسيس مسجد قرطبة ومسجد البيرة وكذلك مسجد سرقسطة التي ذكرناها سابقاً، هذه كلها تركت هواجس في نفس الوليد وحاشيته من أن موسى قد ينقلب بالأخير مع العلويين ضد الدولة الأموية ويؤسس دولة مستقلة في الأندلس. و كان الحكام الامويين قد عاملوا موسى بطغيان ودكتاتورية رغم مكانته وفضله الكبير في الفتوحات، لهذا كان موسى غير راضي على سياستهم وحكمهم ويتمنى الخلاص منهم وانه كان يخفي ولائه للعلويين.

أما طارق بن زياد فيذكر انه انظم إلى المغيث الرومي في اتهام موسى بن نصير بأنه لم يكن عادلاً في تقسيم الغنائم وانه تصرف في حصة بيت المال، ويذكر أن طارق كان في ذلك الموقف يهدف الى التقرب من سليمان وخوفاً من بطشه، لهذا فكر سليمان بتعيين طارق على الأندلس وطلب نصيحة المغيث الرومي فقال له: (لو أن طارق أمر أهلها بالصلاة إلى أي قبلة شاءها لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا) وهذا ما أثار مخاوف سليمان وصرف النظر عنه.

ولم تتوفر بعد ذلك معلومات عن حياة طارق بن زياد ولم يحدثنا أحد من المؤرخين عنه بشيء ولا تذكر لنا متى وأين توفي بل سدل على نهايته حجاباً عميقاً من الصمت، وهو ما يثير الاستغراب والشكوك، فكيف يعتبر من أعظم قواد التاريخ الإسلامي الذي فتح شبه الجزيرة وأسس دولة الإسلام فيها أن يهمل تاريخه ولا يعرف عنه شيئاً بينما كان التدوين للتاريخ في زمانه في أوج عظمته وتطوره.

إذن يعتقد أن هناك كانت نهاية مأساوية لطارق شبيهة بصاحبه موسى بن نصير، وقد فضّل المؤرخون الإعراض عنها إما خوفاً من السلطة الأموية أو أن الحادثة مؤلمة جداً وشديدة المأساة بحيث لا تليق بهذا القائد المسلم العظيم أن تذكر، ومن الروايات التي ذكرت وهي غير مؤكدة كثيراً بأن طارق انتهى أعمى يتسول في قارعة الطريق، وهناك أخرى تقول أنه أصبح عاجزاً وعين له راتباً من بيت المال.

أما عبد العزيز بن موسى بن نصير فيعتبر الشخصية الثالثة من حيث إكمال الفتح بعد موسى وطارق وهو من أعظم ولاة الأندلس وله الفضل في تثبيت دعائم السيادة الإسلامية في شبه الجزيرة واستكمال فتحها واستطاع أن يقضي على الفتن والثورات فيها، وهو أول من نظم البلاد من الناحية الإدارية وشجع الزواج المختلط، وقد كان مثالاً لذلك حيث تزوج القوطية أم عاصم ـ ايجلونا ـ أرملة لذريق، ولكن الخليفة سليمان بعد غضبه ومعاقبته موسى بن نصير بعث إلى من يقتل عبد العزيز فقتله وأنهى حياته وبعثوا برأسه إليه.

وهكذا أنهى الأمويون قيادات الفتح الإسلامي في أفريقيا والأندلس نهاية مأساوية وفي منتهى البؤس والذلة حتى أن بعض المؤرخين تجنبوا من ذكرها لأنها فاقت كل التصور الإجرامي والبشاعة، وكما يقول الجاحظ أن الدولة الأموية دولة عربية إعرابية، بمعنى أن من صفاتها البطش والقتل والنهب والسلب وهتك الحرمات والأعراض فليس لها صديق ولا تحترم قياداتها إنما هما السلطة والمال فقط.

وهذا جدهم أبو سفيان حيث يذكره ابن عبد ربه في سوء في كتابه (العقد الفريد) وينقل رواية نقلها غيره من المؤرخين وهي: عندما اجتمع أبو سفيان مع عثمان بن عفان وكان أعمى فقال تلاقفوها يا بني أمية (ويعني الخلافة) كالكرة فوالذي يعتقد به أبو سفيان ليس هناك جنة ولا نار.

إيقاف الفتح وفكرة التواطؤ

وكان موسى بن نصير يعتبر واحداً من قواد المسلمين العظام فكان شجاعاً وذكياً وداهية في الحروب وحكيماً ومخططاً وجريئاً، وكان له شخصية عالية بحيث أطاعته العرب والبربر، وكان فوق مواهبه العسكرية هذه غزير العلم والأدب.

وعندما وصل إلى جبال البرانت أو البرنيه Prinieos على الحدود الفرنسية كان يتطلع إلى غزو أوربا وفتحها والوصول إلى دمشق عن طريق قسطنطينية، وكانت فيالقه العسكرية تتقدم منتصرة في كل موقعة، تزحف شمالاً وغرباً وشرقاً دون هوادة، بالإضافة إلى الغنائم التي حصل عليها والتي لا تعد ولا تحصى، ولكن عندما وصلت الأخبار إلى الخليفة الوليد في دمشق عن انتصارات المسلمين في اسبانيا ووصولهم إلى حدود الأفرنج والغنائم الكبيرة التي حصلوا عليها، فقد حدثت مفاجئة وهي إيقاف الفتح واستدعاء موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى دمشق.

هنا يقف المحللون على (فكرة المؤامرة). لماذا إيقاف الفتح؟

ولماذا استدعاء موسى بن نصير وطارق بن زياد الى دمشق في هذه اللحظات الحرجة والحاسمة من الحرب ؟. ومنع موسى من تنفيذ مشروعه الضخم وحيث كان الإسلام في ذروة الفتوة والقوة والبأس وكانت جيوشه تقتحم العالم القديم ظافرة أينما حلت ؟.

يذكر بعض المؤرخين بأن الوليد بن عبد الملك كان حريصاً على سلامة ووحدة المسلمين وقد وصلته أخبار خلاف وقع بين موسى وطارق. بينما آخرين يؤكدون بأن الوليد بلغه كثرة الغنائم وعظمها وخوفه من أن تذهب وتبدد وتسرق. ولكن هناك من يحلل الموقف تحليل معاصر فيوعز السبب إلى أن الوليد كان خائفاً من أن يفكر موسى بالاستقلال في الأندلس بما عرف عنه من طمع ودهاء، كما أن البربر كانوا يشكلون غالبية الجيش الإسلامي وكانوا يكرهون العرب خاصةً الحزب الأموي العنصري وأنه ليس بعيداً أن يشجعوا موسى على الاستقلال بالأندلس.

ومن جهة أخرى إن يزيد بن المهلب عندما استجار به موسى من غضب سليمان

وسخطه عليه، عاتبه وفي عتابه إشارات إلى أنه لو بقي في الأندلس وتحصن بها كان خيراً له من المجيء إلى بني أمية قائلاً: (لم أزل أسمع عنك بأنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكائد الحروب ومداراة الدنيا، فقل لي كيف حصلت في يد هذا الرجل بعدما ملكت الأندلس وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار، وتيقنت بعد المرام واستصعابه واستخلفت بلاداً أنت اخترعتها وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل ما لو أظهرت به الامتناع ما لقيت عنقك في يد من لا يرحمك).

هذه الهواجس التي كانت تنتاب الخلافة الأموية وكذلك القواد من أن موسى إذا لم يستدعى الآن وبهذه اللحظة والسرعة قبل إتمام الفتح وتنظيم الإدارة في اسبانيا سيكون لا محال خارجاً عن الخلافة وبالتالي يصعب مواجهته حيث يملك من الجيش القوي والأموال الوفيرة ما يكفي لصد أي هجوم أموي قوي يتوقع. لهذا فإن ظروف وشروط الاستقلال متوفرة، يضاف إلى ذلك وجود قواد شديدي البأس عرفاء بمكائد الحرب وإدارتها من البربر والشيعة العرب أمثال طارق بن زياد ومحمد بن الياس المغيلي وحنش بن عبد الله الصنعاني وعبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر ومنوسه البربري الذي تولى فيما بعد حكم المقاطعة الشمالية من جبال البرنيه شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وغيرهم، كما أن موسى يبغض الحزب الأموي الحاكم خفية وكان أبوه نصيراً من المعترضين على معاوية في حربه ضد الإمام علي عليه السلام حسب ما يذكره بعض المؤرخين.

أما التفسير الآخر لإيقاف الفتح من قبل بعض المحللين هو أن أوربا كانت في ذلك الوقت تمزقها الحروب والشعوذة الدينية والتناحر وكانت مفككة وضعيفة أمام قوة الجيوش الإسلامية الفتية التي كانت في أوج عنفوانها وعظمتها وقوتها وجبروتها، وفيما لو تقدم موسى نحو أوربا لاحتلها ولتمكن من الوصول إلى دمشق، لهذا فهناك ضغوطاً مورست من قبل ملوك أوربا والكنيسة عن طريق عملاءهم وأصدقائهم في داخل الخلافة الأموية خاصةً الذين لهم أصول بيزنطية ومسيحية، أمثال مغيث الرومي وكان مغيث أحد قواد موسى ويقال أنه من أصل بيزنطي من شمال أفريقيا وكان نصرانياً، ثم اسلم وكان في خلاف شديد مع موسى بن نصير ونقل أخبار سيئة ومشوهة عن الفتح وموسى والغنائم إلى الوليد وقد أحس موسى بأن مغيث قد وشى به.

وقد زين مغيث للوليد كثرة الغنائم والكنوز التي حصل عليها موسى من الذهب

والفضة والنفائس الأخرى التي لا تقدر بثمن والتي تعد بالآلاف منها تيجان الملوك وطاولة سليمان الذهبية وغيرها، يضاف إلى ذلك الجواري ونساء الملوك والأمراء التي يضرب المثل في حسنهن وجمالهن.

هذه الغنائم الكبيرة والعظيمة يضاف إلى الخوف من استقلال موسى من المحتمل استخدمت كوسائل ضغط على الخليفة الوليد لإيقاف الفتح بأسرع ما يمكن واستدعاء موسى وطارق إلى دمشق وبالتالي عدم التفكير في غزو أوربا، وكانت هذه الغنائم الكبيرة سبباً في معاقبة موسى وزجه في السجن من قبل سليمان، واحتمال تدبير قتله عندما كان في طريقه إلى الحج. هذه الدعوة تذكرنا بما فعله المنصور العباسي عندما استدعى أبو مسلم الخراساني إلى بغداد بعد ما أخمد الأخير تمرداً كبيراً في بلاد الشام ضد الدولة العباسية، فكان المنصور قد بعث إليه رسولاً أثناء مروره في شمال العراق عائداً إلى خراسان يستدعيه إلى الحضور إلى بغداد ولكن الخراساني أحس بخبائث الدعوة وما تنطوي عليه من غدر فتظاهر بالمرض، ثم بعث إليه المنصور رسولاً آخر وزين له هذا الرسول شوق المنصور إليه واحترامه، فأقنعه وقدم أبو مسلم الخراساني إلى بغداد، و كانت النتيجة هي قتله شر قتلة في بلاط المنصور، وقد نقل المؤرخون هذه الحادثة المؤلمة بالتفاصيل والدقة وكيف انهال عليه الحراس بالخناجر أمام أعين المنصور الدوانيقي.

وكان أبو مسلم من أعظم القواد في العصر العباسي وعليه قامت الدعوة العباسية وسقطت الدولة الأموية، وقد علا شأنه وعظمت مكانته بين الناس فخشي المنصور منه ومن سلطانه وخوفاً من أن يتحصن ويستقل في خراسان ويتزعم الشيعة الذين نكث بهم بنو العباس. ومن المعروف أن الدعوة العباسية قامت باسم الشيعة وكوادر الدعاة الشيعة وبعساكر الشيعة التي كانت تغلي ثورة وسخطاً على بني أمية الذين نصبوا العداء لأهل البيت وقتلوا أئمتهم، وكانت حادثة الطف ومقتل الحسين عليه السلام على يد يزيد بن معاوية كانت سبباً كافياً لغضب الأمة الإسلامية على بني أمية.

ولبث الدعاة الشيعة زهاء نصف قرن ينظمون دعوتهم ويضعون لها الأصول والقواعد ويحشدون لها الصحب والأنصار في سائر النواحي، وكانت تلقى في الخفاء تأييداً كبيراً، وكان أبو مسلم الخراساني رجل الموقف يدبر الخطط بقوة وبراعة فقاد

أنصاره واشتبك في معارك طاحنة مع قوات بنو أمية وهزمهم في مرو وسمرقند وخراسان ونيسابور وبسط أبو مسلم سلطانه على خراسان وفارس، ورفع فيهما لواء الشيعة الأسود.

وكانت آخر معركة للشيعة مع قوات بني أمية كانت في الحادي عشر من جمادى الثاني سنة ١٣٢هـ/ ٢٥ يناير ٧٥٠م وقد وقعت المعركة على ضفاف نهر الزاب وهو فرع من دجلة جنوب شرق الموصل، وكان عدد الشيعة يبلغ زهاء عشرين ألفاً (بحسب الدكتور عبد الله عنان) بقيادة أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي، وكان عدد قوات الجيش الأموي زهاء مائة وعشرين ألفاً بقيادة مروان ابن محمد أو مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية، ولكن حماسة الشيعة كانت تغني عن الكثرة، وتعاقب الظفر يذكي عزائمهم ويضاعف قواهم، وكان الجيش الأموي على ضخامته قد خبت عزائمه واختلت صفوفه وغاضت قواه المعنوية، ونشبت بينهم معركة شديدة حاسمة انتهت بهزيمة الجيش الأموي وتمزيقه وغرق في النهر آلاف من جند الشام وعدد من زعماءه وقادته واستولى الشيعة على أسلابه وفر مروان في فل من أصحابه إلى الشام ثم إلى مصر وتعقبه جيش الشيعة حتى حاصره في قرية بوصير على مقربة من الجيزة وهناك مزقت البقية الباقية من بني أمية وقتل مروان آخر خلفاء الأمويين في المشرق.

وكان الفضل في انهيار دعائم الدولة الأموية يعود إلى جهود تلك الشخصية العظيمة ونعني به أبو مسلم الخراساني، وكانت دعوة الشيعة وإمامة أهل البيت مبعث هذا الانقلاب وروحه، ولم تمض أعوام حتى قتل المنصور أبو مسلم الخراساني سنة ١٣٧هـ ثم تتبع زعماء الشيعة وولد علي بن أبي طالب بالقبض والمطاردة حتى مزقوا شملهم وسحقوا دعوتهم، ثم استخلص بنو العباس تراث بنو أمية لأنفسهم وبذلك قامت الدولة العباسية.

ويذكر بأن الإمام جعفر الصادق ﷺ قال: إن ما فعلته بنو أمية مع العلويين وأهل البيت لم يعد معشار ما فعله بنو العباس. ولنعد الآن قليلاً على موسى بن نصير وإلى إيقاف الفتح، حيث يذكر المؤرخون بأن إيقاف الفتح ترك هناك شرذمة صغيرة من النصارى نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقية Galicia وكان قائدهم يدعى بيلايو Pelayo وقد نمت وقويت هذه الشرذمة بعد إيقاف الفتح وبمرور

الزمن كونت لنفسها مملكة نصرانية صغيرة في هذه المناطق الجبلية الشمالية الوعرة.

وبعد قرون أخذت هذه الدولة الصغيرة تتوسع وتغزو المناطق الإسلامية وأصبحت مصدر قلق وخطر، كما أخذت تغري الشباب النصراني المستوطنين في المدن الإسلامية بالهجرة إلى الشمال والانضمام إلى جيش النصارى وتغريهم أما بالأموال أو بالتهديد، وهكذا قوت شوكة هذه الدويلة. وكانت الحصيلة النهائية هي أنها أسقطت دولة الإسلام في الأندلس بعد ثمانية قرون من حكم المسلمين في شبه الجزيرة الليبيرية.

إذن إيقاف الفتح كانت له نتائج سلبية قاتلة ومدمرة على الأمة الإسلامية في الأندلس وعلى قتل وتشريد القيادات الإسلامية وتمزيقها من ناحية ثم خلق الفتن والاضطرابات بين العرب والبربر بسبب عدم الإنصاف في توزيع الأراضي والمدن والثروات، أما النتائج الأخرى لهذه السياسة العرجاء هي إسقاط الدولة الأموية في المشرق سنة ١٣٢ وقيام الدولة العباسية ثم إسقاط الدولة الأموية في الأندلس على يد بني حمود العلويين الشيعة سنة ٤٠٧م.

عصر انتصار الشيعة في العالم الاسلامي

في نهاية القرن الثاني الهجري شهد العالم الإسلامي مدّاً شيعياً جارفاً فقد نجح الأدارسة في تكوين دولة علوية في المغرب الأقصى سنة ١٧٣هـ/ ٧٨٩م، وسيطر أبناء إدريس على المعظم بلاد المغرب وعبروا إلى بلاد الأندلس ونشروا التشيع، ونجح الفاطميون الشيعة بإعلان الخلافة الفاطمية في أفريقيا سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٨م، بعد نشاط سري دام أكثر من مائة وخمسون سنة.

ونجح الزيديون الشيعة في إقامة دولة حاكمة في طبرستان سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م، وفي اليمن سنة ٢٨٤هـ٨٩٧م، واستولى القرامطة على جنوب العراق والبحرين والأحساء ولم يمضي نحو ثلاثون عاماً على انتصار الفاطميون إلا وظهر جلياً انهيار سلطة الخلافة العباسية، عندما نجح البويهيون الشيعة في فرض سيطرتهم على بغداد وجهر الأذان بـ(حيَّ على خير العمل) كما أقيمت مآتم عاشوراء وذكرى مقتل الحسين عليه السلام لأول مرة في بغداد.

كما ظهرت دولة بني حمود العلوية الحسينية في الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية وسيطرت على جنوب الأندلس سنة ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م، وتشيع البربر وظهرت إماراتهم مثل إمارة غرناطة وكانت غالبيتهم من قبيلة صنهاجة والتي كانت قد بايعت الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا ثم عبرت إلى الأندلس خاصةً في زمن المنصور حيث اعتمد عليهم في حكمه وفرض زيهم الخاص على رجال الدولة. وسنأتي على ذكر ذلك تفصيلاً.

وجاء انتصار الشيعة في العالم الإسلامي بعدما بدأ الضعف يدب في أوصال الخلافة العباسية السنية حيث أخذت في التفكك إلى دول صغيرة وخاصةً ابتداءً من الخليفة الرضي سنة ٣٢٢هـ/ ٩٢٩م، فقد انفصلت الأقاليم الشرقية والغربية عن الخلافة بينما اخذت بقية الممتلكات العباسية تستقل تدريجياً عن سيطرة الخلافة المركزية.

ورغم هذا المد والانتصار الشيعي الكبير والذي سيطر على القسم الأكبر من العالم الإسلامي واستمر عدة قرون فإن هذه الدول لم تجد مجالاً للتعاون والاتحاد فيما بينها

مع أنها على مذهب واحد وخط وحب آل البيت، ويعتقد أن ذلك يعود إلى مصالح إقليمية وشخصية، ومع ذلك فإن هذا الانتصار أحدث رجّة في العالم الإسلامي نحو التجديد والإصلاح خاصةً في مجال الفقه والادب والعلم والشعر والعمران وما تركه الفاطميون اليوم في مصر شاهداً على ذلك.

دولة الادارسة الحسنية

الاضطراب السياسي والاجتماعي الذي تفجر في أكثر مراكز العالم الإسلامي بعد حادثة الطف مباشرة كان سبباً في التعجيل بسقوط الدولة الأموية، وقيام دولة بني العباس التي أخذت نفس المنحى الأموي الاستبدادي ونفس السياسة الضالة، وكانت أكثر بطشاً وإرهاباً للمعارضين ولأهل البيت ﷺ وأنصارهم.

لهذا كانت هناك انتفاضات وثورات عديدة قام بها العلويون وأنصارهم ضد الأمويين والعباسيين، قامت في الحجاز والشام والعراق وغيرها، وكانت أكثر الثورات دموية ووحشية بعد مأساة كربلاء هي ثورة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ، والتي وقعت في مكة والمدينة في ذي القعدة سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م، حيث بويع الحسين بالخلافة في المدينة وأقام بها (١١) يوماً ثم سار إلى مكة فالتقى مع الجيش العباسي بقيادة سليمان بن المنصور في منطقة تسمى (فخ) على بعد نحو ستة أميال عن مكة، وانتهت المعركة بهزيمة العلويين وقتل الحسين ومعظم أهله وأصحابه وقطعت رؤوسهم ومُثل ببعضهم، وكانت دموية ووحشية حتى أن بعض المؤرخين يصفها بأنها تشبه حادثة الطف. ويذكر بأن الرسول الأكرم ﷺ كان خارج مكة مع بعض أصحابه ولما وصل ـ فخ ـ نزل وصلى ركعتين، فسأله أصحابه عن السبب فقال (نزل عليّ جبريل ﷺ وأخبرني بأن في هذا المكان يقتل أحد أبنائي مدافعاً عن الإسلام وحرمته).

وكان مع الحسين في معركة (فخ) عمّاه إدريس بن عبد الله بن الحسن ويحيى، وقد نجح إدريس في الإفلات مع المنهزمين من بني حسن وبقي متخفياً فترة من الزمن ثم قرر الذهاب الى المغرب عن طريق مصر، وعندما نزل مصر كان يوم ذاك على بريدها واضح مولى صالح بن منصور وكان شيعياً مُحباً لأهل البيت، فعلم بقدوم إدريس

إلى مصر فجاءه فجاءه إلى المكان الذي يتخفى فيه، وساعده على الفرار إلى المغرب وكان معه مولاه راشد فنزل بـ(وليلي) من أعمال طنجة وكان ذلك في غرة ربيع الأول سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م.

فنزل على إسحاق بن عبد الله الأوربي أمير أوربة وكبيرهم، فأجاره وأكرمه وأقام عنده زهاء ستة أشهر تمكن خلالها من نشر دعوته العلوية ومظلومية أهل البيت وحقهم في الخلافة، وتمكن بفضل فصاحة لسانه وعلمه من التأثير في نفوس البربر خاصةً لما عرفوا أنه أحد أبناء رسول الله ﷺ فاجتمع عليه قبائل:

- أوربة.
- مغيلة.
- صدينة.
- زناته وفروعها (زواوة ـ لواته ـ سراته ـ نفزة ـ مكناسة وغمارة).

وقد بايعوه بالإمامة ثم تمكن إدريس من تأليف جيش كبير من البربر استطاع به من فتح كثير من الحصون والمدن خاصة المناطق الجنوبية من المغرب التي لا زالت تدين بالوثنية ونشر دعوته العلوية هناك، ثم رجع إلى مقره في (وليلي) سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م، بعد ذلك قام بعدة غزوات فتح بها عدة مدن وحصون منها تلمسان حيث بايعه فيها قبائل البربر وبنى فيها مسجداً، ثم عاد إلى (وليلي) سنة ١٧٣هـ/ ٧٨٩م، وبذلك تم تأسيس دولة الأدارسة العلوية.

ولما سيطر إدريس على بلاد المغرب وبايعه أهلها خاصة البربر وعظم شأنه خافه هارون الرشيد وفكر بالقضاء عليه فاستشار وزيره وصديقه الحميم يحيى بن خالد البرمكي، فأشار عليه أن يبعث إلى إدريس رجلاً تتوفر فيه صفات الذكاء والمكر، وأخيراً وقع الاختيار على سليمان بن جرير ويعرف بالشمّاخ وأعطاه قارورة فيها عطر مسموم، فسار الشمّاخ إلى المغرب واتصل بإدريس وأصبح من ندماءه وفي ذات يوم جلس بين يدي إدريس على عادته فتحدث معه ملياً ثم قال له: يا سيدي جُعلتُ فداك إني جئت من المشرق بقارورة طيب أتطيب بها ثم أني رأيت هذه البلاد ليس بها طيب فرأيت أن الإمام أولى بها مني، فخذها تتطيب بها، فأخذها إدريس وشمها وكانت القارورة مسمومة فأدت إلى قتله، فركب الشمّاخ فرسه، فلما علم به راشد ركب فرسه

ولحق به ولكنه أفلت منه، ودُفن إدريس خارج (وليلي) وأصبح اليوم مزاراً للمغاربة يتبركون بتربته.

ونُحب أن نقف هنا قليلاً على جماعة البرامكة، فهم جماعة استقدمهم هارون الرشيد من بلاد فارس ليكونوا في بطانته وحرسه الخاص وبمرور الوقت أصبحوا مستشاريه ووزراءه، ثم سيطروا على جميع شؤون الدولة ولكن سرعان ما تدور الدائرة على هؤلاء ويُتهمون بالخيانة والفساد الأخلاقي والاستئثار بالسلطة والأموال، ومنها اكتشاف هارون الرشيد علاقة لاخته العباسة مع يحيى البرمكي، كل ذلك أدى إلى قتل يحيى البرمكي مع عدد من أنصاره وطرد البرامكة وهو ما يسميه المؤرخون بـ(نكبة البرامكة)، وهكذا دفع يحيى ثمن فساده ومؤامراته ضد العلويين ومنهم إدريس بن الحسن عليه السلام.

توفى إدريس بن عبد الله مسموماً دون ولد ولكنه ترك جارية له من أصل بربري اسمها كنزه حاملاً في السابع من أشهر حملها، فجمع راشد قبائل البربر وذكر لهم من أمر هذه الجارية فقالوا له: أيها الشيخ المبارك تقوم بأمرنا كما كان إدريس يفعل فينا حتى تضع الجارية، فقام راشد بأمرهم حتى وضعت كنزه في ربيع الآخر سنة ١٧٥هـ/ ٧٩١م، غلاماً سُمّي باسم أبيه إدريس، ولما بلغ الغلام عشرة سنوات جددت له البيعة على يد راشد في جامع وليلي في غرة ربيع الأول سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢م، ثم استقام الأمر لإدريس بـ(فاس) واتخذها مركزاً لدولته وقام بعدة غزوات وأخذ البيعة من كثير من قبائل البربر وامتدت دولته العلوية فشملت معظم مناطق المغرب وهددت نفوذ الدولة العباسية في أفريقيا. توفى إدريس سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م، ويقال انه مات مسموماً بحبة عنب وكانت من تدبير وزيره بهلول بن عبد الواحد المطغري.

ثم تولى الإمامة محمد بعهد من أبيه إدريس وأوصته جدته كنزة بأن يشرك إخوته معه في حكم الدولة، فولى أخوه القاسم سبتة وطنجة، وقلعة حجر النسر وبسكرة وتطوان وما يلحق بهذه المدن من بلاد وقبائل، واختص أخاه عمر ببلاد صنهاجة، وولى داود بلاد هوارة وعبد الله أغمات وجبال المصامدة ويحيى أصلاً (أصيلا) والعرائش، وحمزة على وليلي وأعمالها، وأحمد مكناسة وتادلا وأبقى تلمسانة لابن عمه سليمان بن عبد الله، أما الباقون فقد أبقاهم في كفالة جدته كنزة لصغر أعمارهم

عن الولاية، أما هو فاكتفى بحاضرته فاس... وهكذا سيطر أولاد إدريس على غالبية مناطق المغرب الأقصى وحكموا باسم الأدارسة العلويين، ولكن هذه السياسة لم تدم طويلاً فقد أدت إلى انتشار الفتن والصراعات بين الأخوة ومن ثم تمزق ملكهم خاصةً بعد وفاة محمد بن إدريس والذي أوصى بالإمامة إلى ابنه علي الملقب بـ(حيدره) ومن بعد أخوه يحيى بن محمد.

ويذكر أنه في عهد يحيى بن محمد ازدهرت الحياة العمرانية في فاس، وفي عهده أسست أم البنين فاطمة بنت محمد الفهري المسجد الجامع بعدوة القرويين بفاس وهكذا.... وفي آخر عهد الأدارسة حدثت فتن كثيرة أدت إلى إقتتال الأخوة وأبناء العم فيما بينهم على الإمامة وسلطة الولايات، ثم انقسمت دولة الأدارسة إلى إمارات علوية بلغ عددها تسعة إمارات حسب ما يذكره الجغرافي اليعقوبي والذي زار المنطقة بين أعوام ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م و ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م، وبقيت هذه الإمارات إلى قيام الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا، وقد أثرت هذه الإمارات البربرية على أبناء عمومتهم في الأندلس من البربر فانتشر التشيع هناك وسنرى في المستقبل كيف أن أحفاد الأدارسة عبروا إلى الأندلس وكونوا لهم دولة علوية هي دولة بني حمود سنة ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م، وحيث سيطرت على معظم المناطق الجنوبية في الأندلس.

الدولة الفاطمية

كان التشيع منذ نشأته اتخذ صبغة مضادة للعصبية العربية فكما اعتمد في المشرق على الموالي من الفرس، اعتمد في الغرب على الموالي من البربر، وكان البربر يشكلون الغالبية السكانية العظمى في شمال أفريقيا وكانوا يبغضون العرب لاستئثارهم بالسلطة والأراضي الخصبة، وسنأتي على شرح أسباب ذلك تفصيلاً في موقع آخر من هذا الكتاب.

لهذا كان شمال أفريقيا أرض خصبة لانتشار التشيع وحب أهل البيت حيث قامت فيه أسرة شيعية من الفرع الحسني أسست سنة ١٧٣هـ/ ٧٨٨م دولة الأدارسة كما ذكرنا ذلك سابقاً، وكان المركز الآخر الخصب للدعوة الشيعية هو اليمن وذلك لبعدها عن دار الخلافة العباسية ومناعتها الطبيعية وكذلك قربها من الحجاز مجمع الحجاج.

وكان القائم بالدعوة الشيعية في اليمن رجل من الكوفة يسمى رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الملقب بالمنصور لانتصاره على والي العباسيين في اليمن، كما يذكره البعض بأنه يسمى (أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان النجار الكوفي) ومعه رجل آخر من الدعاة يسمى أبو الحسن علي بن الفضل الجيشاني.

وأهم المصادر التي تتحدث عن ابن حوشب هو رسالة (افتتاح الدعوة) للقاضي النعمان الذي ذكر بأن ابن حوشب كان في بداية أمره على مذهب الاثني عشرية ثم انتقل إلى المذهب الاسماعيلي، واعتبر القاضي النعمان بأن اليمن أصل الدعوة ومنها انتقلت إلى شمال أفريقيا، وقد كان فرار العلويين من الشرق هرباً من الاضطهاد الذي تعرضوا له هناك من الأمويين والعباسيين، وكانوا تقريباً من فرع الحسن بن علي عليهما السلام الذين لوحقوا من قبل العباسيين دون هوادة.

وقد تمكن هؤلاء العلويين من التمركز في الشمال الأفريقي في الأراضي التي ضعفت فيها سلطة الخليفة العباسي وممثليه وفي القبائل البربرية التي مالت إلى التشيع،

وتذكر بعض المصادر بأن المذهب الشيعي دخل أفريقيا بصورة أكثر سرية وتنظيماً قبل وصول الداعي الاسماعيلي أبي عبد الله الشيعي، فقد وصل أول تسلل شيعي في أواسط القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) أي قبل نحو ١٣٥ سنة قبل وصول أبي عبد الله الشيعي إلى هناك.

كما تذكر بأن الإمام جعفر الصادق ﷺ أرسل داعيين للمغرب هما الحلواني وأبا سفيان وقال لهما: (بالمغرب أرض بور فاذهبا واحرثا حتى يجيء صاحب البذر) فنزل أحدهما في بلدة مراغة والآخر ببلدة سوف جمار من أرض كتامة، فانتشرت الدعوة الشيعية في هذه النواحي، وقد ذكر هذه الروايات ابن خلدون في كتابه (تاريخ ابن خلدون) والقاضي النعمان في كتابه (افتتاح الدعوة) وكذلك ابن الأثير ولكن بشكل مقتضب.

كما يذكر بن الحلواني وأبا سفيان كانا تلميذين للإمام جعفر الصادق ﷺ ولم يقوما بالدعوة بالمصطلح الاسماعيلي وإنما قاما بشيء مختلف وابسط من ذلك بكثير في نشرهم محبة أهل البيت وفضلهم وفقههم، وقد تشيع الكثير من البربر على أيديهما، لهذا فيكون أبو سفيان والحلواني هما رائدين بهذا المعنى وهيئا التربة الخصبة للدعوة الاسماعيلية.

وقد عهد ابن حوشب الى أبي عبد الله الشيعي بالدعوة الاسماعيلية في بلاد المغرب، فخرج عبد الله إلى مكة وهناك التقى بجماعة من أهل كتامة فتحدث معهم وكان لفصاحته وغزارة علمه أثر كبير في سلب عقولهم، فلما أرادوا العودة سألوه عن مقصده فادعى أنه يود الذهاب إلى مصر ليعلم بها فأشاروا إليه بأن يصحبهم على بلادهم فوافق على ذلك.

ووصل إلى أرض ؟ـ كتامة في بلاد المغرب في ربيع الأول سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م، ولما استقر أمره أخذ ينشر دعوته ومذهبه فكانت قبيلة ـ كتامة ـ أول قبيلة بربرية ينشر بين أهلها التشيع، وقد كون عبد الله جيشاً قوياً من أبناء كتامة استطاع به أن ينتصر على دولة الأغالبة الرستمية ثم أخذ يستولي على المدن والحصون ويوسع من رقعة دولته وكانت انتصاراته متتالية وسريعة وكانت جيوش البربر من كتامة وغيرها قد حصلت على غنائم كثيرة من ذهب وحرير وسروج فضة وأموال طائلة.

وتذكر المصادر بأن أبي عبد الله الشيعي كان يخبر أصحابه بأن هناك رجل من أهل البيت يسمى عبد الله المهدي سوف يأتي من المشرق وينشر العدل ويرفع الجور والظلم من هذه البلاد، وبعد الانتصارات والفتوحات الشيعية التي حققها عبد الله بعث إلى عبد الله المهدي يخبره بالقدوم وكان في سليمة من أرض حمص، وتنكر المهدي بزي تاجر وقدم مصر ثم رحل عنها إلى القيروان ثم قسطنطينة ثم إلى سلجماسة حيث يوجد أبي عبد الله الشيعي، وأقام الإثنان فيها أربعين يوماً ثم رحلا إلى القيروان فوصلا إلى رقادة في ربيع الأول سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩، وهناك خرج أهل القيروان لاستقباله وسألوه تجديد الأمان لهم ففعل.

وبذلك أعلن قيام الدولة الفاطمية في ٢١ ربيع الأول سنة ٢٩٧هجرية الموافق ٥ يناير سنة ٩١٠ميلادية، ومثلما تخلص العباسيون من رواد ومؤسسي الدعوة العباسية الذين كانوا من شيعة أهل البيت أمثال أبو مسلم الخراساني مؤسس دولتهم، تخلص عبد الله المهدي من داعيته الرئيسي أبي عبد الله الشيعي الذي مهد له الطريق في أفريقيا فقتله، وهو الذي أثار غضب واستياء الكتاميين بعض الوقت ضد المهدي، وهذه الحوادث نراها مع الأسف تتكرر في كثير من الثورات الشعبية حيث يختطف ثمارها آخرين بدافع الأنانية والمصالح الشخصية والفئوية، وخاصة في بلدانا العربية.

وبعد ما استقر الوضع للمهدي فكر في بناء مدينة جديدة حصينة تكون مركزاً للخلاقة وأمناً للفاطم كما عبّر عنه المهدي حينما انتهى من بناء المدينة قال (أمن اليوم الفواطم) وسميت المدينة الجديدة بالمهدية، وكانت مدينة ـ رقادة ـ بوقوعها في وسط سهل فسيح عرضه للغزو من كل جانب لهذا اختير هذا المكان الذي يقع على البحر وتم بناء المهدية وانتقل إليها في شوال سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م، وعمرت بالأسواق والمساجد والأرباض.

وكان المهدي يفكر في فتح مصر أو الأندلس وذلك لوفرة ثرواتها ولأهمية كل واحدة منهما في تكوين الدولة الإسلامية الكبرى التي يطمح الوصول إليها، لهذا بدأ يجس النبض بإرسال العيون إلى الأندلس وذلك لدراسة أحوالها الاجتماعية والسياسية ومناطق الضعف والقوة فيها، ومن هؤلاء العيون (أبو اليسر العالم الرياضي المتوفى سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م، وابن هارون البغدادي، وابن حوقل النصيبي المتوفى سنة

٣٦٧هـ/ ٩٧٧م، وهذا الأخير يعتبر من أكبر جواسيس الدولة الفاطمية الذي دخل الأندلس للتعرف على أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والعسكرية.

ورغم تكثيف الجهود إلا أن الفاطميين لم يفلحوا كثيراً في دعاياتهم وجلب الأنصار لهم من الأندلسيين وذلك لرسوخ المذهب المالكي في هذه الديار وكذلك لتهيؤ الأمويين في الأندلس لصد طموحات الفاطميين، وقد حدثت رسائل متبادلة ودعم للثوار الذين خرجوا على الدولة الأموية في الأندلس من قبل الفاطميون مثل الثائر ابن حفصون وابن القط وغيرهم، وسنأتي على ذكر هذه الثورات في مكان آخر من هذا الكتاب.

وقد تأثر بالدعوة الفاطمية كثير من المفكرين الأندلسيين منهم ابن أبي المنظور الذي ولى القضاء لإسماعيل المنصور (٣٣٤ ـ ٣٤١هـ) (٩٤٥ ـ ٩٥٢م) والشاعر الأيبيري ابن هاني الأندلسي المتوفى سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م، الذي طرد من الأندلس بعد ما كشف ميوله للفاطميين ومنهم القائد علي بن حمدون الجذامي المعروف بابن الأندلسي الذي قدم إلى المغرب واتصل بالمهدي وابنه من بعده، ثم عهد إليه بناء مدينة المسيلة سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م.

ولما علم الأمويون بمطامع الفاطميون في الأندلس، استنفروا قواهم وانتبهوا للخطوات التي يخطوها الفاطميون لبسط سلطانهم مذهبياً وعسكرياً على الأندلس، ويذكر ابن خلدون بأن عبد الرحمن بن محمد الأموي (...وضبط البحر ونظر في أساطيله واستكثر منها ومنع ابن حفصون من البحر...) ويعتقد أنه قام بتوزيع الأساطيل على السواحل الجنوبية الشرقية من الأندلس لمنع الإمدادات من القيروان إلى عمر بن حفصون الثائر على الخلافة الأموية، خاصةً وأن ابن حفصون كان قد أرسل بيعته إلى المهدي وأخذ يدعوا له في منطقة نفوذه بالأندلس.

ثم حدثت معارك طاحنة بين الفاطميين والدولة الأموية في الأندلس خاصةً عبر البحر ومن خلال مهاجمة السواحل بواسطة أساطيلهم، وبعدما رأى المهدي استحالة فتح الأندلس فكر في مصر ولم يتم ذلك إلا في عصر المُعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، وكان ذلك أعظم انجاز قامت به الدولة الفاطمية والذي حفظ لها مكاناً بارزاً في التاريخ، وفي مصر أنشأ الفاطميون عاصمة جديدة هي القاهرة كما

أنشئوا جامع الأزهر والذي أصبح يدرس فيه مختلف العلوم والفقه الشيعي.

وفي زمن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي وتحت إشراف الوزير الحسن بن علي البازودي(١٠٥٠ـ١٠٥٨م) والذي جمع في يديه ثلاثة مناصب قاضي القضاة وداعي الدعاة والوزارة (وكان الخليفة لازال صبياً)، في هذه الفترة حققت الدعوة الاسماعيلية نجاحاً رائعاً ولو أنه موقت في العراق فقد تمكن الداعي الاسماعيلي المؤيد الشيرازي من الاستفادة من الفوضى التي أعقبت سقوط البويهيين الشيعة سنة ١٠٥٧م، لنشر الدعوة الفاطمية هنا، بحيث تم الاعتراف مع بداية عام ٤٤٩هـ/ ١٠٥٨م، بالمستنصر الفاطمي خليفة في الموصل على نهر دجلة ـ وفي واسط والكوفة وانطبق ذلك على بغداد في نهاية عام ١٠٥٨م، حيث دخلت قواه موالية للفاطميين بقيادة البساسيري وأجبرت الخليفة العباسي (القائم) على التنازل عن العرش وتم ترحيله إلى (عانة) على الفرات وأرسلت عباءته وشعارات الملك الأخرى إلى القاهرة، فكان ذلك أعظم انتصار للفاطميين، فقد تمكنوا في النهاية من تحقيق الهدف الذي تطلعوا إليه لزمن طويل وهو تكوين دولة إسلامية كبرى وإسقاط الخلافة العباسية.

غير أن الانتصار لم يدم طويلاً وسرعان ما ضيعه ابن المغربي خليفة الوزير اليازوري الذي منع إرسال مساعدات مالية وعسكرية مستعجلة إلى القائد البساسيري، ولذلك استعيدت الخلافة العباسية سنة ١٠٥٩م، بمساعدة السلاجقة الأتراك واضطر القائد الفاطمي البساسيري إلى مغادرة بغداد. ومنذ سنة ١٠٦٢م، حدثت مشاكل عميقة في مصر أدت إلى استلام الخلافة الفاطمية من فرع آخر من الاسماعيلية. وقد امتد نفوذ الفاطميين إلى أغلب مناطق العالم الإسلامي، فتولوا حكم فلسطين وسورية والحجاز كما استطاعوا نشر دعوتهم على الطرق التجارية المشرقية ابتداءً من البحر الأحمر إلى الهند، حيث أخذ دعاتهم يصولون ويجولون في طول الأرض وعرضها، وقد فرض الفاطميون سيطرتهم عن طريق الصُلحيين على عُمان لضمان وصولهم إلى السند والهند.

وابتداءً من سنة ١٠٦٢م، بدأ الضعف يدب في جسد الدولة الفاطمية حتى نجح صلاح الدين الأيوبي في وضع نهاية للدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، بعد ما حكمها الفاطميون حوالي ثلاثة قرون (٢٧٠سنة).

كانت الدعوة الفاطمية تنطوي بالنسبة للأندلس على خطر مزدوج ديني وسياسي وكانت في قوتها وعنفوانها قد أصبحت تتحرك جيوشها بحرية نحو المغرب ومصر غازية، فمنذ عبد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين والاجتياح السريع للمغرب كان ذلك يثير القلق و الخوف في حكومة قرطبة الأموية.

وكان الثوار الشيعة الأندلسيين يتجهون بأبصارهم إلى الدولة الفاطمية ويأتمرون معهم على الإطاحة بحكومة الأندلس، ولكن عبد الرحمن الناصر أراد إيقاف الفاطميون عند حدهم فأرسل اسطولاً حربياً إلى المغرب سنة ٣١٩هـ/ ٩٣١م، وسيطر على سبتة وأخرج منها ولاتها البربر من بني عصام حلفاء الفاطميون، كما طلب الناصر من والي طنجة أبي العيش الحسني أن يتخلى عنها فرفض وقاوم ولكنه أجبر بالأخير على التخلي عنها والانسحاب إلى مدينة البصرة وثغر أصيلة.

وكان أبي العيش وأخوته وبني عمه من الأدارسة العلويين وربما كانت إمارتهم هي إحدى الإمارات العلوية التسعة التي ذكرها المؤرخ الجغرافي اليعقوبي الذي زار المنطقة بين أعوام ٢٦٣ـ٢٧٦هـ/ ٨٧٦ـ٨٨٩م، كما يذكر بأن عدد من الزعماء البربر والأدارسة العلويين وكذلك من قبيلة زناته كانوا قد دعوا الناصر إلى المهادنة ففعل، ثم استطاع الناصر فرض سيطرته على بعض المدن المغربية، ولكن الفاطميون أرسلوا جيشاً قوياً بقيادة ابن يصل عامل تاهرات للسيطرة على المغرب غير أن الناصر استطاع أن يهزم جيش الفاطميين بقيادة موسى بن أبي العافية أمير مكناسة.

وفي سنة ٣٢٣هـ، كرر الفاطميون حملاتهم للسيطرة على المغرب حيث بعث الخليفة الفاطمي (القائم) حملة إلى المغرب بقيادة ميسور الصقلبي فضيق على موسى حليف الناصر وطارده حتى الصحراء، وبذلك فقد استطاع الفاطميون والأدارسة العلويين السيطرة على مكناسة وضواحيها، وهكذا عاد حكم الأدارسة إلى بعض مناطق المغرب بدعم وإسناد فاطمي.

وكانت فكرة غزو الفاطميين للأندلس تلوح قوياً في الأفق وكان تفكير الفاطميين إنشاء إمبراطورية عظيمة وتوسيعها أما نحو الأندلس أو مصر حيث توجد هناك عوامل كثيرة تشجع على ذلك، وكان الخلفاء الفاطميون على علاقة وثيقة مع الثوار

الأندلسيين الشيعة وكذلك مع الثائر العنيد عمر بن حفصون زعيم المولدين، الذي امتدت ثورته من سنة ٢٨٨هـ إلى وفاته سنة ٣٠٦هـ، وكانت هناك رسائل متبادلة بين الخلفاء الفاطميون والثوار الأندلسيين وكان هناك دعم مادي وثقافي من قبل الدولة الفاطمية حيث أرسلت إليهم عدد من الدعاة للتبشير بالدعوة الفاطمية.

وقد سقطت بعض الرسائل والوثائق في يد حكومة قرطبة والتي تبين نية الدولة الفاطمية بغزو الأندلس بالتعاون مع بعض الثوار الشيعة الأندلسيين، وفي سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م، سارت بعض السفن الحربية الفاطمية وهاجمت ثغر المرية وأحرقت ما فيها من سفن، فرد عليهم الناصر بأن أرسل قوة بحرية إلى شواطئ أفريقيا (تونس) فعاث فيها، وأمر عبد الرحمن الناصر في نفس الوقت بلعن الشيعة والفاطميين على منابر الأندلس، وهو بالضبط ما فعله قبلاً معاوية بن أبي سفيان عندما أمر بلعن علي وشيعته على منابر الدولة الإسلامية، وهو أسلوب دائماً يستخدمه الحكام عندما يواجهون خطاً جارفاً من الأمة، ولكي يحافظون على سلطانهم فيعمدوا إلى تكفيره وإسقاطه وإخراجه عن الملة.

وسيّر الخليفة الفاطمي المُعز قائده جوهر الصقلبي سنة ٣٤٧هـ، في جيش عظيم إلى المغرب الأقصى ومعه زعيم صنهاجة زيري بن مناد في قواته فاجتاح شمال المغرب كله حتى المحيط، وكان بنو زيري قد أسسوا إمارة علوية في الأندلس في البيرة (غرناطة) وكانوا حلفاء لبني حمود العلوية وذراعها العسكري القوي، ولما رأى عبد الرحمن الناصر ضعف الدولة العباسية وما يحدث من فوضى واضطراب في المشرق خاصةً بعد سيطرة البويهيين الشيعة على بغداد، كما رأى أن الدولة الفاطمية أعلنت الخلافة وعدم الاعتراف بالدولة العباسية، لهذا رأى أنه من الأجدر به أن يعيد سالف مجد بني أمية ويعلن الخلافة الأموية في الأندلس ونفذ ذلك الأمر في مستهل ذي الحجة سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٩م.

وكان سابقاً ان الأمراء الأمويين في الأندلس يعتبرون ويعتقدون أن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين وانه حق شرعي له لهذا كانوا قد سموا أنفسهم بالأمراء، ولكن هناك من يرى أن الأمراء الأمويين هم أمراء سلطة وحكم ومال وهم أشد أعداء بني العباس الذين أطاحوا بحكمهم في المشرق سنة ١٣٢هـ، لهذا فإنهم لم يعلنوا الخلافة

في بادئ الأمر لاعتبارات سياسية واجتماعية وخوفاً من الفتنة، ثم أعلنوها بعد ذلك لما رأوا أن الظروف تخدمهم وأن الخلافة العباسية قد ضعفت وأخذت الدولة الإسلامية تنفصل إلى دويلات مستقلة.

وقد قام عبد الرحمن الناصر بإجراء آخر ضد الفاطميين وهو دعم الثوار الخارجين على الدولة الفاطمية أمثال أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار، كما أنشأ أسطولاً حربياً نازع فيه الفاطميون في البحر المتوسط، كذلك وطد علاقات دبلوماسية مع أعداء الفاطميين فتحالف مع ملك إيطاليا (Hugues) الذي كان يحقد على الفاطميين لتدميرهم ميناء (جنوه)، كما تحالف مع إمبراطور بيزنطة الذي كان يهدف إلى استرجاع صقلية من أيدي الفاطميين، أما الإجراء الآخر الذي اتخذه الناصر هو إرسال فقهاء المالكية إلى مصر في زمن الإخشيد وقبل فتحها من قبل الفاطميين لمحاربة المذهب الشيعي أمثال الفقيه أبو إسحاق محمد بن قاسم بن شعبان المعروف بابن القرطبي.

كل هذه الإجراءات القوية والحاسمة التي قام بها الناصر أدت بالتالي إلى صرف الفاطميين عن فتح الأندلس والاتجاه إلى مصر، هذه الإجراءات السياسية والعسكرية كانت ولا زالت تمارس حتى اليوم للحفاظ على المصالح السلطوية والفئوية والقبلية وكانت تمارس فوق كل الاعتبارات الدينية أو المذهبية، وكان هارون الرشيد قد عقد علاقات وتحالفات مع ملك فرنسا شارلمان الكبير لمحاصرة الدولة الأموية في الأندلس وضربها.

كما مارستها بعض الدول العربية في تحالفها مع أمريكا والغرب في ضرب الدول العربية الأخرى بل إن بعض هذه الدول أيدت أمريكا وإسرائيل والغرب في سياستها المضادة لإيران المسلمة، وفوق كل ذلك تخلت عن قضية فلسطين وتركت أراضيها للاستعمار الصهيوني يشيد فيها المستعمرات والقواعد العسكرية دون أن يحرك ساكن فما أشبه اليوم بالماضي.

بداية التشيع في الأندلس

دخل التشيع الأندلس مع دخول الجيوش الإسلامية الفاتحة وأشع مع إشعاع رقعتها، وبقى الفكر الشيعي متجذراً في معظم القبائل العربية والبربرية حتى سقوط الدولة الإسلامية الأندلسية سنة ١٤٩٢م، ويذكر بعض المؤرخين أسباب عديدة لانتشار التشيع في الأندلس منها:

١ ـ كان في الجيش الإسلامي الفاتح عدد كبير من العوائل العربية التي تدين بنصرة أهل البيت، وكان معظمها من العراق واليمن كما كان فيها عدد من قواد الجيش الذين اشتركوا مع الإمام علي عليه السلام في مواجهات الفتن والحروب التي ظهرت في زمانه وهم من التابعين، ومن هذه الشخصيات والبيوت العربية هو حنش بن عبد الله الصنعاني، وكان أحد تلامذة الإمام عليه السلام وممن حارب إلى جانبه، وله الفضل في تثقيف الناس إسلامياً في الأندلس، وهو أول من أسس مسجد قرطبة في سرقسطة كما يُذكر أنه تولى إدارة سرقسطة حتى وفاته، وكان من أعظم قواد موسى بن نصير ومستشاريه وبعد عودة موسى وطارق إلى دمشق استمر حنش الصنعاني في إكمال الفتوحات إلى جانب القائد التابعي علي بن رباح اللخمي، حيث أكملا الفتوحات في المناطق الشمالية من شبه الجزيرة. ومن الشخصيات المهمة الأخرى هو القائد عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر وكان جدّه صاحب الإمام علي عليه السلام وممن حارب إلى جانب الإمام في معركة صِفّين وقتل فيها (رض)، وكان عبد الله والياً على البيرة (غرناطة) ولما دخل عبد الرحمن الداخل الأندلس خرج عليه عبد الله بجيش كبير وحدثت بينهما معركة صارمة انتهت بانتصار عبد الرحمن ومقتل عبد الله بن سعيد، أما الشخصية البارزة والمهمة هو الحسين بن يحيى بن سعيد بن عباد الخزرجي وكان قائداً وثائراً شيعياً كان جدّه من شيعة الإمام علي عليه السلام وكان والياً على سرقسطة، هذه البيوت والشخصيات العربية كانت منابر علم وفقه وثورة أثرت تأثيراً قوياً على نشر الثقافة في المجتمع الأندلسي، وكانت لها نتائج مستقبلية مهمة جداً حيث مهدت الطريق إلى قيام دول الشيعة في الأندلس.

٢ ـ المركز الثاني للتشيع كان مع القبائل البربرية وهو الأهم والأقوى حيث كانت شمال أفريقيا والأندلس أرض خصبة لانتشار التشيع وذلك لأن التشيع منذ نشأته اتخذ طابع ضد العصبية العربية الذي سلكته الدولة الأموية الأعرابية، وكما أن التشيع في المشرق قام عليه الموالي من الفرس فكذلك في المغرب قام عليه الموالي من البربر، وقد تردد صدى التشيع في الأندلس لأول مرة في صفوف البربر الذين كانوا يشكلون غالبية الجيش الإسلامي الذي فتح الأندلس، وقد استأثر العرب دونهم بالغنائم وثمرات الانتصار كما أخذوا المدن والأراضي الخصبة والسهول بينما استوطن البربر المناطق الجبلية والهضاب المرتفعة لا سيما الممتدة وسط شبه الجزيرة والمنطقة الجبلية في جنوب شرق الأندلس في كورة البيرة، وهذا التعامل الغير منصف من قبل الأمويين أثار الغضب والأحقاد عليهم. وكانت المناطق البربرية ميداناً لجميع الثورات الشيعية في الأندلس، وكانت أو ثورة شيعية قام بها البربر هي ثورة شقيا بن عبد الواحد المكناسي الملقب بالفاطمي سنة ١٥١هـ/ ٧٦٨م.

٣ ـ هروب العلويين من بطش ودموية الدولة الأموية في المشرق إلى شمال أفريقيا وتأسيس أول دولة علوية بزعامة إدريس بن الحسن وهي دولة الأدارسة في المغرب وقد بايعته معظم القبائل البربرية، وكان ذلك له صداه الكبير على البربر في الأندلس، وكانت دولة الأدارسة من أهم العوامل وأكبرها التي غذّت التشيع في الأندلس وأمدته بألوان ثقافية جديدة، ثم جاءت الدولة الفاطمية وسيطرت على شمال أفريقيا ومصر وكانت أيضاً بمثابة الطوفان الهائل للتشيع الذي أدى بالأخير إلى إسقاط الدولة الأموية في الأندلس ومهّد الطريق إلى قيام دولة بني حمود العلوية الإدريسية فيها.

٤ ـ نقل الثقافة الشيعية إلى الأندلس عن طريق الأندلسيين الذين ذهبوا للمشرق للدراسة وطلب العلم حيث نقل هؤلاء كثير من كتب الشيعة بعد عودتهم إلى الأندلس، ويُذكر بأن أول من نقل شيئاً من الثقافة الشيعية وأدخلها إلى الأندلس هو أبو الحكم عمر بن عبد الرحمن الكرماني القرطبي، منها كتب بديع الزمان الهمداني واابكر الخوارزمي وكتب الشريف الرضي وغيرها، وقد أثرت هذه الكتب تأثيراً كبيراً على الأدب والفلسفة والفقه في الأندلس. ويُذكر بأن الأندلسيين كانوا ينقلون

ويقلدون المشارقة بل كان ذلك شئنهم جميعاً حتى أواخر القرن الثالث الهجري والدليل على ذلك (العقد الفريد) لابن عبد ربه. ويُذكر بعض المؤرخين بأن الادب الشيعي في المشرق كان من أهم العوامل التي غذت الأدب العربي بألوان جديدة وأنه يمتاز بصدق العاطفة وقوة الشعور الديني، لهذا فقد ظهر شعراء في الأندلس شيعة كانوا من فطاحل الشعر العربي في الأندلس مثل ابن هاني الأندلسي الذي لُقّب بمتنبي الغرب وابن شهيد القرطبي وعبد الرحمن بن مقانا الاشبوني وغيرهم، وسنذكر ذلك بتوسع في مكان آخر من هذا الكتاب.

تشيع البربر

معنى البربر واصله :

يُذكر بان كلمة البربر لم تكن موجودة في القاموس العربي اللغوي أيام الجاهلية فالصلة بين الجزيرة العربية والمغرب لم تكن قوية، ولكن على ما يبدوا أنها دخلت إلى القاموس بعد انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية، واختلاطهم بالروم وليس بمستبعد أن نقل العرب هذه التسمية من اليونان الذين أطلقوا اسم بربر على الشعوب التي لا تتكلم اليونانية، ومن ثم جاء الرومان وأطلقوها على الشعوب غير الرومانية من جرمانية ومغاربة، فسموهم برباز وعربها المسلمون إلى بربر وبرابر.

وذكروا بأن سبب تسمية شعب المغرب بالبربر أن أفريقش بن قيس بن صيفي لما فتح المغرب وسمع رطانة البربر، قال: ما أكثر بربرتهم فسموا بالبربر، والبربر في لغة العرب اختلاط الأصوات غير المفهومة، وحسب ابن خلدون فإن البربر ينقسمون الى طائفتين، هما البربر الحضر الذي يسكنون المناطق الخصبة ويشتغلون بالزراعة والصناعة والبربر الرُحل الذين يسكنون الصحارى ويعيشون على الرعي وما يسلبونه من غاراتهم على ما يجاورهم من عمران.

وهناك تشابه بين القبائل العربية والبربرية من حيث الانقسامات إلى عوائل وقبائل وبطون وصفات أخرى كالشجاعة والخشونة وحب القتال وغيرها، ويُذكر بأن شعب المغرب اتخذ اسم أحد أبناءه البعيدين وهو (بر) وهذا رأي ابن حزم نقله

عن يوسف الوراق المتوفى سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م، الذي يرجع إليهم البكري في كتابه (المسالك والممالك) أو (بربر) حسب رأي آخرين مثل الصولي.

وفي القرن الرابع الهجري دونت أنساب البربر بالعربية وأصبح لها علم لم يقل شأناً عن علم الأنساب عند العرب ومن مشاهير نسابة البربر الذين يذكرهم ابن خلدون هم: سابق بن سليم المطماطي وهاني بن مسدور وأيوب بن أبي زيد وغيرهم. وينقسم البربر حسب النسّابة ـ نقلا عن الدكتور السيد عبد العزيز سالم ـ إلى قسمين رئيسيين هما البرانس والبتر، فالأول ينتمي إلى برنس بن بر فسُمّوا البرانس، والثاني ينتمي إلى مادغيس بن بر الملقب بالأبتر فسُمّوا البتر.

وينقسم البرانس إلى سبع قبائل هي: أوربة ـ صنهاجة ـ كتامة ـ مصمودة ـ أوريغة ـ أزداجة، وقيل عشرة يضاف إليها ـ لمطة ـ هسكورة ـ جزولة، وتعتبر صنهاجة أكبر قبائل البربر حتى زعموا أنها مقدار الثلث منهم، وكانت صنهاجة قد تشيعت وساندت الدولة الفاطمية ومنهم من كوّن إمارة شيعية في غرناطة في عصر الطوائف، أما كتامة فقد لعبت دوراً هاماً في قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب، وتعتبر مصمودة من أهم قبائل البرانس حتى أن بعض المؤرخين يجعلها فرعاً قائماً بذاته، ومن المصامدة غمارة التي تحتل منطقة العدوة في الريف وبراغوتة أهل تامسنا وأهل جبل درن وكانوا يعيشون فيما بين بور جرح وأم الربيع، ومن المصامدة المستقرين في السهل ـ دكالة ـ جنوب وادي أم الربيع و ـ رجراجة ـ على وادي تنسيف وجميع المصامدة متحضرون قد تعودوا حياة الاستقرار في المدن، وصنهاجة المسمون الآن بالطوارق، يتلثمون ويسمون بالمتلثمين أيضاً ومنهم المرابطون، ومواطن صنهاجة تقع في جنوب بجاية إلى جنوب الجزائر.

أما بربر البتر فينقسمون إلى أربعة قبائل هي: ضريسة ـ نفوسة ـ وداسة ـ بنو لواي أو لواته. وتنقسم ضريسة إلى مكناسة وزناتة، ويعتبر ابن خلدون قبيلة زناتة فرعاً من البربر قائماً بذاته، وتتفرع من زناته: جراوة ـ مغراوة ـ بنو يفرن ـ بنو زيان ـ بنو مرين، ومن لواته قبيلة نفزة أو نفزا التي استقرت في المناطق الجنوبية من تونس وطرابلس وقسطنطينة.

وبعض من نسّابة البربر قالوا بان البرنس والبتر يرجعون إلى (بر) جدهم جميعاً

ولكن آخرين لم يوافقوا على هذا الرأي الذي قال به ابن حزم في كتابه (جمهرة أنساب العرب) فقالوا أن لكل من الجماعتين جدها الخاص بها فالبرانس أبناء بر ابن أمازيغ بن كنعان، والبتر أبناء بر بن قيس بن عيلان، وهذه النسبة الأخيرة إلى الكنعانيين والقيسيين تعني أن البربر قبائل مشرقية الأصل هاجرت إلى المغرب في ظروف تاريخية معينة، وهذا ما يقوله النسّابة فعلاً، وأكد هذا بعض المؤرخين المسلمين مثل ابن الكلبي وابن قتيبة والجرجاني والطبري والمسعودي والبكري وابن الأثير بأن أصل البربر من الشام وأنهم طُردوا من فلسطين أيام داود ﷺ الذي قتل ملكهم جالوت، وهناك روايات أخرى تقول أنهم من اليمن، ومنهم من قال أنهم من أصول متعددة اجتمعوا في الشام، ويقول ابن خلدون أنهم قدموا من الشام، ويذكر بعض المؤرخين بأن هجرة البربر من الشام إلى المغرب فيها شيء من الحقيقة ولا سيما أن القرطاجيين قدِموا إلى هذه البلاد وهم فرع من الفينيقيين الساميين. أما اللغة البربرية فكانت عبارة عن عدد من اللهجات أشبه بلهجات القبائل العربية قبل الإسلام قبل أن تسودها اللهجة القريشية وهي لغة القرآن، والبربرية كانت تكتب في العصور القديمة وقد عُثر على بعض نقوشها في الصحراء ويذكر أن هناك تشابه بين اللغة البربرية واللغة المصرية القديمة. وبعد أن تعرب المغرب كتبت اللغة البربرية بالحروف العربية.

مناطق استقرار البربر في الأندلس

كان البربر يشكلون الأغلبية الساحقة في حملة طارق بن زياد في فتح الأندلس، يضاف إلى هذا فإن العديد منهم عبروا إلى الأندلس بعد سماعهم نبأ انتصار طارق على الغوط الغربيين، ويذكر ابن خلدون أسماء أربعة قبائل بربرية كان يتألف منها جيش طارق بن زياد الذي دخل الأندلس وهي: مطغرة ومديونة ومكناسة وهوارة، وكلها متفرعة من زناتة.

كما يضيف ابن حزم في كتابه (جمهرة أنساب العرب) قائمة بقبائل أخرى وفدت الأندلس وهي: مغيلة وملزوزة و نفزة وأوربة ومصمودة. ولقد لعب البربر دوراً مهماً في تاريخ الأندلس إذ يرجع إليهم الفضل الأعظم في نشر الإسلام والجهاد في

سبيله كما أنهم اختلطوا بأهل البلاد اختلاطاً وثيقاً وكانوا للعرب أعواناً في تغلغل الإسلام إلى سائر أنحاء البلاد، الأمر الذي جعل الطابع البربري ظاهرة واضحة في جنوب الأندلس حتى الوقت الحاضر.

ومن المناطق التي استقر فيها البربر هي جنوب الأندلس مثل الجزيرة الخضراء وشذونة واشبيلية وقرطبة ورنده وجيان والبيرة (غرناطة) وكانوا يتمركزون بأعداد كبيرة في الجزيرة الخضراء والذين ينتمون إلى قبيلة مصمودة، وتشير المصادر إلى ذكر أحد علمائهم المشهورين وهو عباس بن ناصح المصمودي ويسميه البعض عباس بن ناصح الثقفي، وقد أصبح قاضياً لشذونه والجزيرة الخضراء في أثناء عهد الحكم الأول (١٨٠ ـ ٢٠٦هـ) وكان هذا العالم الجليل شاعراً مرموقاً، أرسله الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٥٢هـ)(٨٢٢ ـ ٨٥٢م)، إلى العراق في التماس الكتب القديمة، ثم درس هناك وصاحب بعض العلماء والفقهاء وتأثر بالفكر الشيعي ثم رجع إلى الأندلس وهو يدرّس تلاميذه الفقه الشيعي، وقد أثر على كثيراً من أبناء عمومته من مصمودة، وفي شذونة استقرت قبيلة ملزوزة كما عاشت فيها قبيلة مغيلة، وكانت مغيلة قد بايعت وناصرت دولة الأدارسة في المغرب.

وفي مدينة مورور استقر العديد من القبائل البربرية منها مصمودة بزعامة إبراهيم بن شجرة البرنسي، وفي اشبيلية وضواحيها سكنت قبائل بني الخروبي الزناتيين وبني الليث من زناته واستقر بعض من أفراد صنهاجة في ضواحيها ومجموعات من مصمودة، وسكنت قرطبة ومناطقها العديد من القبائل البربرية مثل مصمودة وهوارة ومغيلة وكتامة، وكانت كتامة أول قبيلة بربرية آمنت وبايعت الدولة الفاطمية ثم كوّن الفاطميون من أبنائها جيشاً عظيماً فتحوا به شمال أفريقيا وأسقطوا دولة الأغالبة، كما سكنت ضواحي قرطبة قبائل مكناسة ومديونة ونفزة وجراوة، وينتمي العالم والفقيه المنذر بن سعيد البلوطي إلى نفزة وكان قاضي الجماعة في قرطبة في زمن الناصر، وكان شيعياً معتدلاً، وكانت نفزة قد آمنت بدعوة ابن القط أحمد بن معاوية بن هشام سنة ٢٨٨هـ، حيث كان شيعياً ثائراً على الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الداخل.

واستقر في جيان وماحولها أفراد من صنهاجة وهوارة وهتروكة، أما في البيرة (غرناطة) فقد استقرت كتامة والتي تعتبر من أهم القبائل البربرية في هذه المنطقة،

وسكنت قبيلة لماية في مدينة ريه القريبة من ملقا ويحتمل أيضاً أن يكون قد سكنها بعض الأفراد من مغيلة، وكانت تاكرونا القريبة من رندة التي تقع بين أشبيلية وملقا موطناً لمجموعة كبيرة من البربر الذين ينتمون إلى مصمودة ونفزة وبني الخليع، ويذُكر أن منطقة تاكرونا كانت مركزاً للتمرد الذي قاده البربر على الإمارة الأموية وكانت غالبيتها ثورات شيعية، وسوف نذكر ذلك في مكان آخر من هذا الكتاب.

أما المناطق الوسطى من الأندلس والتي تمتد عبر وديان نهر التاجة شمال طليطلة وطلبيرة وإلى وادي نهر آنه في الجنوب حيث تقع ماردة ومدلين، هذه المناطق أيضاً استقرت فيها أعداد كبيرة من البربر وكان غالبية الذين سكنوا طليطلة من البرانس وبعضهم يرجع إلى البتر مثل مغيلة، واستقرت جماعة من نفزة مثل بني رشيد في يانة (زانة) ويرجله (Tarjalu أوTarjilla) وعاشت جماعة من نفزة ومكناسة في ماردة، وكانت جبال المعدن مأهولة بالبربر وغالبيتهم من البرانس وتقع هذه الجبال إلى الجنوب من وادي نهر آنه واستقرت مجموعة أخرى من البرانس وتدعى مسطاسة في منطقة قلعة رباح.

وسكن العديد من البربر في المنطقة الغربية التي يطلق عليها منطقة الجوف وكان عدد البربر فيها كثيراً حتى ان المؤرخ ابن حيان يقول فيها: (إن أرض الجوف بلاد البربر) وكان ماردة ومدلين Madellin اللتين تقعان على ضفاف وادي آنه من أكثر المناطق ازدحاماً بالسكان وكان معظمهم ينتمي إلى مصمودة ومكناسة وهوارة وكتامة وبنو وانسوس المكناسيون، ويُذكر بأن أحد أبناء هذه القبيلة قد تمرد على الأمير الأموي في عهد الحكم الأول ويدعى أصبع بن عبد الله بن وانسوس وقد أيد هذا الثائر بربر منطقة ماردة.

كما استقر في ماردة ومدلين في وقت مبكر بنو فرفرين من هوارة، وكانت قورية والجدانية Idanha من المواطن الكبيرة لاستقرار البربر وبشكل خاص أولئك الذين ينتمون إلى مصمودة وتقع قورية على الحدود الاسبانية البرتغالية غرباً، وربما تستقر مجموعة من مصمودة في لشبونة، واستقر بنو دانس بن عوسجة من مصمودة في الأقسام الجنوبية من البرتغال، وعاش قسم آخر من البرانس في قلمرية التي تقع جنوب بورتو Porto في البرتغال.

واستقرت بعض القبائل البربرية البترية في هذه المنطقة الغربية ومن هؤلاء جماعة نفزة أو مديونة على رأي ابن حزم وأقاموا في حصن أم جعفر الذي يقع في كورة ماردة، وكان لعشيرة زواغة حصنها الخاص بها بالقرب من بطليموس ومازال هذا المكان يسمى Azuaja وربما عاشت جماعات تنتمي إلى كل من قبيلة مغيلة وزناتة في منطقة بطليموس في أماكن ضلت تحمل اسمي هاتين القبيلتين إلى هذا اليوم مثل Maguillia و Gineta.

كما استقر البربر في المناطق الشرقية من الأندلس وبشكل خاص في منطقتي بلنسية وتدمير (مرسيه) وينتمي هؤلاء إلى قبائل صنهاجة وأوربة وكتامة وهوارة ومصمودة، وعاشت قبائل مصمودة في المناطق التي تشكل في الوقت الحاضر ما يعرف بمحافظات قسطليون Castillon ولقنت Alicante ومرسيه Murcia.

وسكنت كتامة في قرية تدعى البونيتي Alpuente وكان من أشهر هؤلاء الكتاميين ـ بنو قاس ـ ويُذكر بأن كتامة كانت أول قبيلة بربرية تشيعت وساندت الدولة الفاطمية، ولا زال المكان يحمل اسم بنو قاسم Banocasim القريبة من Castillon، وشغلت الأقوام التي تنمي إلى نفزة منطقة شاطبة Jativa وتولت بعض أسرهم الشهيرة فيها بعد حكم شاطبة، وهناك موقع في منطقة شاطبة يعرف لحد اليوم باسم Nifzies نسبة إلى قبيلة نفزة، وعاشت جماعات من قبائل زناتة في بلنسية ومرسيه ولقنت ويُذكر أن أحد مناطق بلنسية كان يسمى زناتة.

واستقر البربر أيضاً في المناطق الشمالية الشرقية من جبال البرت إلى المناطق التي تشمل في الوقت الحاضر (لاردة Lerdia) و(وشقة Huesca) ثم تتوجه جنوباً إلى نهر الأبرة Ebro والمحافظات الحديثة سرته Soria ووادي الحجارة وقوينقة وتيروال (طرويل) Teruel، باستثناء سرقسطة وماحولها والتي سكنتها في الغالب من عشائر عربية ومع ذلك فقد سكنها بعض الأفراد من قبائل زواغة وصنهاجة ومكناسة وهوارة، وكانت المناطق المهمة المأهولة بالبربر تشمل وادي الحجارة ومدينة سالم وقلعة أيوب وشنتبرية Santaver و وبذة Hueta وتروال Teruel، وتُعد مغيلة من القبائل التي سكنت في منطقة وادي الحجارة، وقد أصبح أحد زعمائها والياً لهذه المدينة وهو محمد بن الياس المغيلي، وعاشت في هذه المنطقة بنو برزال وبعض أفراد بني الياس الذين جاءوا إلى هذا المكان من لشبونة.

وكانت قبائل البرانس ومصمودة من الأوائل الذين استقروا في وادي الحجارة ومن المحتمل أن يكون سالم بن رعال جد بني فرج أحد الذين رافقوا طارق بن زياد إلى الأندلس، وقد أصبحت مدينة وادي الحجارة تسمى مدينة فرج نسبة إلى أحد أحفاد سالم الذي يدعى فرج بن مسرة، وهناك مدينة أخرى تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة وادي الحجارة تسمى مدينة سالم نسبة إلى أسرة سالم، ولازالت تحتفظ باسمها Madinaceli، أما الأسرة الهوارية الأخرى فهي أسرة بني رزين ومن المحتمل أنها تنتمي إلى رزين الأبرنسي الذي كان من أعظم القواد الذين دخلوا الأندلس بصحبة طارق بن زياد، وكان بنو رزين قد استقروا في قرطبة أولاً ثم تحولوا إلى الشمال وأقاموا في مكان يدعى السهلة القريب من تروال Teruel وقد حكموا هذه المنطقة في أواخر الدولة الأموية ما يقرب من تسعين سنة (٤٠٣ ـ ٤٩٧هـ)(١٠١٢ ـ ١١١٤م).

ولا زالت عاصمتهم التي سميت باسمهم تقع على بعد ثلاثين كم إلى الغرب من تروال وتحمل اسم Albarracin، واستقرت أسرة أخرى من مصمودة في شنتبرية ووادي الحجارة ومنهم بنو أران وبنو مضي وبنو رسين، وأقام أفراد من بنو عمارة في مكان لا زال يدعى Bengamar، وكانت قبائل برانس وهوارة من الأوائل الذين سكنوا الشمال الشرقي، وتشير المصادر على أن مجموعة منهم سكنت المنطقة بقيادة السمح بن ورد حيقن الهواري الذي دخل الأندلس في أول الفتح واستقر هو وأتباعه في شنتبرية في قرية تسمى ـ أقافلة ـ ويُعد هذا القائد الجد الأعلى لبني ذي النون الذين لعبوا دوراً مهماً في هذه المنطقة وشيدوا مدينة وبذة Hueta وأقليس Ucles، كما حكموا طليطلة في زمن الطوائف.

كما عاشت في هذه المنطقة من قبيلة نفزة أيضاً بنو عمير وبنو غزلون وبنو نعمان وبنو بلال الذين استقروا في شنتبرية ووادي الحجارة وتروال، كما سكن في تروال جماعة من بني برغواطة ومن المحتمل أنهم سكنوا في مكان يسمى باسمهم Burbagena وبنو صبرون الذين ينتمون إلى قبيلة أوربة ومنهم صبرون بن شبيب وابنه وكيل اللذان حكما لاليشة Aliaga في الشمال الشرقي من تروال.

وسكنت قبيلة مكناسة في شنتبرية وما يجاورها وكان منهم الثائر شقيا بن عبد الواحد المكناسي الذي قاد ثورة كبيرة ضد عبد الرحمن الداخل استمرت عشرة

سنوات وكان شيعياً وقد ساندته وأيدته قبيلة نفزة، وايضاً سكنت هنا مديونة ومنهم بنو هذيل وكانوا أمراء في الثغور وخاصة في شنتبرية ووادي الحجارة حيث تولى منهم إمارة هذه المدن وهما هلال وعامر بن ثابت المديوني، وسكنت في هذه المنطقة أيضاً عوسجة وينسب إليهم بلاط عوسجة كما حكم فرع من هذه القبيلة (وبذة) يدعى عامر بن وهب، وحكموا أيضاً هنا بنو غزون من زناتة ولا زالت بعض الأماكن تحمل أسمائهم مثل Butsenit و Sanet و Bebisenet، وربما استقر أفراد من صنهاجة في وادي الحجارة لأن المؤرخ اليعقوبي يذكر أحدهم كان حاكماً لهذه المدينة، وسكنوا هنا بنو عبدوس من صندية وهي قبيلة بترية، ومدغرة أيضاً بترية، وقد عاشت في طرطوسة Tortosa بالقرب من نهرة الأبرة Ebro.

وعاشت هنا أيضاً بنو الأدلم وبنو قتة من (هوتوتة) في الثغور ووادي الحجارة وشنتبرية، وبني شميط في قلعة أيوب وبني دروقة الذين استقروا في ناحية دروقة Daroca التي سميت على اسمهم والتي تبعد ٢٨كم عن قلعة أيوب، ولازال المكان يحمل نفس الأسم، وهو اليوم مدينة تابعة إلى قلعة أيوب من محافظة سرقسطة.

وسكن البربر أيضاً في الشمال الغربي خاصة في جليقية Galicia واستورقة Astorga وشرطانية Cerretania غرب جبال البرت، واستقر في أول الأمر منوسة الذي كان قائداً في جيش طارق بن زياد في مدينة خيخون Gijón في منطقة الأشتوريش Asturias، وقد أصبح فيما بعد حاكماً على شرطانة ومسؤولاً عن كل المنطقة الممتدة من جبال البرت إلى المحيط الأطلسي، ومن المناطق التي سكنها البربر هي أوربا Orba في نافارا Navarra ويعتقد أنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة أوربة التي استقرت بها وكذلك مناطق غوميريز Gomeriz في جليقية و Comar من سرته Soria وقد اتخذت أسمائها من قبيلة غمارة التي استقرت بها.

أما كتامة فقد أعطت أسمها إلى كل المناطق التالية : (Cotanes في محافظة بلد الوليد وCotanillos حي في منطقة شقوبية Segôvia وCotimos التي تقع بين مدينتي Lamego و Almadia في البرتغال، وكذلك سميت جبال Sierra de Burrnes و Botnes في الشمال الشرقي من البرتغال و Albonos في محافظة أبيلا Avila على اسم البرانس البربرية، ويُذكر بأن قبائل البرانس يؤلفون الغالبية الكبيرة الذين اختاروا

الاستقرار في هذه المنطقة الجبلية.

ويذكر الدكتور ليفي بروفينسال أن هؤلاء البربر استقروا بلا استثناء تقريباً في المناطق الجبلية التي لا يندر وجودها في شبه جزيرة أيبيريا، ويعلل ذلك بأنهم لم يكن لديهم الخيار لأن العرب اختصوا لأنفسهم بأكثر الجهات خصباً مثل فحوص الأندلس والمنيات الشرقية، ولما كان البربر قدموا من بلاد جبلية فقد كان في مقدورهم التكيف باستقرارهم خارج المناطق السهلة وذلك بشغل مناطقهم المرتفعة في هضبة (الميزيتا) الوسطى وسفوح جبال (السيرا) حيث قاموا بتربية المواشي وغرس الأشجار ونعموا بحياة استقلالية لا يخضعون فيها للسادة العرب.

مناطق استقرار العرب

ذكر ابن غالب الأندلسي في كتابه (فرحة الأنفس) وابن حزم في (جمهرة أنساب العرب) من أن المنازل التي نزل بها العرب في سائر أنحاء الأندلس كانت تتميز بأنها أخصب مناطق البلاد وأطيبها، فقد نزلوا في مدن السهول وعلى الأخص سهول وادي الكبير مثل فحص (سهل) أشبيلية وقرطبة واستجة، وفي الفحوص الخضراء لوادي شنيل ووادي تاجة ووادي أبرة (أبرو) Ebro وفي مروج شرق الأندلس وفي السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية.

ففي طليطلة استقر الوقشيون الكنانيون والأنصار، وفي أشبيلية استقر بنو قيس بن عيلان والباجي اللخميون، وبنو هوازن بن عكرمة، والبلويون من قضاعة، والحضرميون من حضرموت، وفي أوريولة بنو هذيل بن مدركة، وفي بلنسية بنو بكر بن هوازن، وفي وادي أش بنو أسد بن ربيعة، وفي غرناطة بنو عطية بن ربيعة وبنو عبد السلام بن خولان، وبنو أضحى بن همدان، وبنو جودي بن هوازن، وبنو القليعة من أزد وبنو الأحمر من سعد بن عبادة.

وفي قرطبة بنو حمديس بن تغلب وبنو رأس من مذحج وبنو الأصبح من كهلان وبنو جهور من تغلب والحضرميون، وفي أونية وشلطيش بنو بكر بن وائل وفي سرقسطة بنو عذرة وبنو الخزرج وفي شقورة بنو غافق...الخ.

وكان العرب يعيشون كالسادة الرومان والقوط إذ يمتلكون إقطاعيات كبيرة

يكلون أمر زراعتها ورعايتها إلى الفلاحين الأسبان أو المولدين من العامة، بينما هم يقيمون في ضيعاتهم أو مجاشرهم أو منياتهم بالقرب من المدن، ولذلك كانوا يتمتعون بحياة الترف والنعم، كذلك اتخذ العرب الذين استقروا في المناطق الزراعية بعيداً عن المدن حصوناً وأبراجاً للاحتماء، مثل مراد الواقع بين أشبيلية وقرطبة وقلعة بني سعيد المعروفة بقلعة يحصب وتقع في إقليم غرناطة ومثل قلعة خولان الواقعة بين الجزيرة الخضراء وأشبيلية، وقلعة جابر التي تقع شمال أشبيلية وقلعة أيوب التي أقامها أيوب بن حبيب اللخمي في الثغر الأعلى قرب سرقسطة وقلعة رباح الواقعة بين قرطبة وطليطلة.

كما أن العرب أقاموا لأنفسهم ضياعاً سميت بأسمائهم مثل منزل همدان بالقرب من غرناطة ومنزل طي قبلى مرسيه ودار بلى شمال قرطبة وهكذا، ويذكر الدكتور عبد الله عنان أنه بعد استقرار المسلمين وسيطرتهم على جميع أنحاء أسبانيا توزعت القبائل والعشائر العربية المختلفة فنزلت قبائل دمشق بكورة قرطبة وحمص بأشبيلية ولبلة وأنحاءها وقنسرين بجيان وأنحائها، وفلسطين بشذونة والجزيرة وريّة وملقا وأنحائها وقبائل اليمن بطليطلة وأراضيها ونزل الفرس بشريش وأحوازها، والعراقيون بكورة البيرة (غرناطة) والمصريون بتدمر وماردة وأشبونة وأراضيها واستقر الحجازيون بالقواعد الداخلية.

وأما البربر فقد نزل أغلبهم بالأطراف الغربية في نواحي ماردة وبطليموس وأراضي البرتغال ونواحي الثغر الأوسط شمال طليطلة فيما وراء نهر التاجة وفي بعض نواحي الثغر الأعلى وفي قطاع قوينقة والسهلة، ونزلت قبائل منهم بين القبائل العربية في نواحي شاطبة ولقنت وفي أحواز شذونة وأراضي الفرنتيرة.

ويلاحظ من الناحية الإقليمية أن القبائل العربية احتلت معظم الوديان الخصبة في شبه الجزيرة وأن البربر أنزلوا في معظم الأقاليم والهضاب القاحلة، وهذا التقسيم المجحف للأقاليم المفتوحة كان عاملاً في الشقاق بين العنصرين الفاتحين العرب والبربر، وفي زمن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز عين السمح بن مالك الخولاني واليا على الأندلس وقد خصص أراضي الولايات الشمالية وهي جليقية وليون والاستورياس إلى البربر وأن تخصص الولايات الجنوبية يعني الأندلس إلى القبائل العربية.

ثورات البربر

كان البربر الذين يتألف منهم غالبية الجيش الإسلامي يبغضون قادتهم ورؤسائهم العرب وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطة والغنائم الكبيرة واحتلالهم القواعد والوديان الخصبة في الأندلس، ويقول الدكتور عبد العزيز سالم (الحقيقة أن بربر الأندلس ثاروا على العرب في شمال الأندلس وجنوبه لسوء معاملتهم لهم رغم تفوق البربر على العرب في العدد ولكن يبدو أن أسباب الخلاف بين العرب والبربر ترجع إلى استئثار العرب بالأراضي الخصبة دون البربر، لهذا كله كانوا يضمرون للعرب السوء وينتظرون فرصة مواتية فيثبون عليهم).

وذكر المقرّئ: (فلما بلغهم ظهور بربر العدوة على عربها وأهل الطاعة وثبوا من أقطار الأندلس فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم، وأخرجوا عرب استرقة والمدائن التي خلف الدروب، فلم يرع ابن قطن إلا فلهم قد قدم عليه وانظم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس إلا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم فإنهم كانوا أكثر من البربر فلم يهيج عليهم البربر...).

ويُذكر بأن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي أمر ولاته في شمال أفريقيا أن ينتزعوا المزيد من الضرائب من البربر من أجل تغطية نفقات الحملات البحرية في البحر المتوسط وكان هؤلاء الولاة يحشدون أيضاً المزيد من البربر لهذه الحملات، ويذكر الطبري وغيره من المؤرخين بأن الولاة في شمال أفريقيا امتنعوا من إعطاء البربر المشاركين في الحملات العربية نصيبهم من الغنائم، وفي أثناء القتال كان البربر يؤمرون دائماً أن يكونوا في المقدمة، كما كان الولاة أيضاً يقتلون أعداداً هائلة من الشياه التي يمتلكها البربر وذلك طلباً للغرار الأبيض النادر الذي يرسل إلى الخليفة.

ومن الواضح أن سبباً واحداً من هذه الأسباب التي ذكرت سابقاً كان يكفي لخلق السخط والاستياء بين البربر وتمردهم ضد الأمويين وكانت هذه السياسة الخاطئة السيئة قد بدأ بها الأمويين في المشرق مع الموالي من الفرس والترك وكذلك العرب العلويين من بني هاشم ولم يكتفوا بذلك بل تعدوا على الدين الإسلامي وخلقوا لهم

فقهاءً وعلماء يفتون لهم، وأمر معاوية بن أبي سفيان بسب آل البيت (علي وفاطمة والحسن والحسين) على المنابر وأجبر خطباء المساجد بتنفيذ ذلك وأصبحت سنة إلى مجيء الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز حيث احتج وأمر بإزالة هذه السنة الأموية وإطفاء الفتن بين المسلمين.

وذكر ابن خلدون بأن الأمويين أعراب ودولتهم دولة أعرابية بمعنى بدوية ومن صفات هؤلاء القسوة والشدّة والنهب والسلب والقتل والاستئثار بالأموال والسلطة، مما أثار سخط العالم الإسلامي عليهم وغضبه خاصةً بعد قتلهم للإمام الحسين بن علي وفاطمة عليهما السلام فعجل ذلك بسقوط دولتهم سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م.

وكانت سنة ١٢٢هـ/ ٧٣٩م وقتاً مناسباً لثورة البربر لأن القوات العربية في شمال أفريقيا كانت مشغولة في فتح صقلية، كما كانت في المشرق مشغولة بإخماد الثورات العلوية، وفي هذا الوقت انتشر التشيع في شمال أفريقيا وذلك لأن التشيع منذ نشأته اتخذ صبغة مضادة للعصبية العربية، ثانياً أن الشيعة كانوا ضد سياسة الحزب الأموي الخاطئة، كل ذلك دعا إلى تشيع الكثير من القبائل البربرية وتحالفها مع الشيعة العرب.

وكان تمرد البربر قد اشترك فيه كثير من القبائل البربرية منها: مديونة ومطغرة وهوارة ومغيلة وبرغواطة، وهذه القبائل هي نفسها التي كانت تؤلف غالبية جيش طارق بن زياد عند فتح الأندلس وقد نال هؤلاء التأييد من الجماعات الأخرى في المنطقة وبشكل خاص الأفارقة وبعض الموالي الذين ينتمون إلى أصول بيزنطية، وقد قامت حركة البربر أولاً في طنجة بقيادة مسرة المطغري زعيم إحدى قبائل البربر حيث هاجموا عاملها عمر بن عبد الله المرادي وقتلوه ثم تقدموا نحو سبتة وأمروا العرب بالخروج منها، وهكذا بدءوا يتحركون على المدن والمناطق في شمال أفريقيا ووقفوا ضد حكامها العرب فمنهم من قُتل ومنهم من اضطر إلى مغادرة البلاد.

وقد أصبح موقف العرب في شمال أفريقيا خطيراً للغاية، لهذا اضطر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك إلى الاعتماد على القوات الشامية الأموية وبدأت الاستعدادات في سوريا لإرسال جيش عظيم إلى شمال أفريقيا، وعندما التقى الجيش الشامي مع البربر في شمال أفريقيا في مكان يدعى بقدورة حوالي سنة ١٢٣هـ/ ٧٤١م، بالقرب

من نهر (سبو) انهزم الشاميون هزيمة نكراء وقُتل قادتهم وفر الباقون، فلاذوا في سبتة وتحصنوا بها مع قائدهم بلج بن بشير، وسرعان ما أثرت أحداث شمال أفريقيا على بربر الأندلس حيث قاموا بالتمرد على العرب، ولما فشلت محاولات الولاة العرب في إخماد هذا التمرد، دعوا القوات الشامية إلى دخول الأندلس بشرط مغادرتها خلال سنة واحدة لأنهم يخشون منها.

ولكن ثورة البربر عمّت جميع مناطق الأندلس وكانت لهم نفس الأسباب التي كانت عند بربر شمال أفريقيا، ويُذكر أنه لم يتولى بربري واحد ولاية الحكم في اسبانيا التي تحملوا الجزء الأعظم من المشاق في فتحها ورغم أنهم يشكلون العدد الأكبر فيها، ما عدا منوسة الذي كان قائداً في مناطق الاشتوريش Asturias، وجبال البرتات في الشمال والشمال الشرقي من اسبانيا، ولكن هذا القائد كان قد عين في المراحل المبكرة جداً من فتح الأندلس من قبل طارق بن زياد، يضاف إلى ذلك فإن الولاة التالين لم يقتنعوا بوجود حاكم بربري مثل منوسة، فهوجم من قبلهم وأجبروه على رمي نفسه من فوق صخرة عالية، وهذه الحادثة زادت استياء البربر في الأندلس.

وقد بدأت ثورة البربر في اسبانيا في الشمال الغربي في جليقية Galicia واستوقة حيث قتلوا العديد من المستقرين العرب وأبعدوا الآخرين نحو الجنوب، أما في الشمال الشرقي ومنطقة سرقسطة فلم يتدخل البربر في هذه الحركة بسبب التفوق العددي للعرب عليهم، وقد نظم البربر المتمردون قواتهم في الشمال الغربي وزحفوا جنوباً للقاء بقية إخوانهم في منطقة قورية وطلبيرة وماردة وغيرها، ويبدوا أنهم كانوا في إحاطة تامة بالموقف في كل من اسبانيا وشمال أفريقيا، وبشكل خاص خطر الشاميين الأمويين في سبتة، لهذا فإنهم انقسموا إلى ثلاثة مجموعات، الأولى أرسلت إلى الجنوب لمنع عبور بلج بن بشير والشامين إلى الأندلس، والثانية لمهاجمة الوالي عبد الملك بن قطن في قرطبة والثالثة لمهاجمة طليطلة.

ولكن عبد الملك بن قطن استعد لهذا الزحف البربري ودعا الشامين إلى العبور بقيادة بلج بن بشير، وحسب ما يذكر المؤرخون بأن الشامين كانوا قساة أميون أعراب، ولقد دعاهم عبد الملك على مضض وكراهية خوفاً من البربر، وشرط عليهم بعد إنهاء تمرد البربر العودة إلى ديارهم ومقراتهم، وفعلاً غدر الشاميون بالوالي ابن

قطن بعد فشل تمرد البربر وقتلوه ونصبوا بلج بن بشير والياً على الأندلس.

وقد وصلت القوات الشامية إلى الأندلس قبل وصول البربر إلى قرطبة، وقد فوجئ البربر وهم لا زالوا معسكرين في شذونة بقوات عبد الملك وبلج والشاميين فدُحروا بسرعة ثم ردوا في قرطبة، أما التجمع الثالث فقد كان على بعد ٩ كم من طليطلة حيث تقدمت عليه القوات الشامية الأموية المشتركة وهزمته، فتتبعهم العرب ولكن البربر تفرقوا واختفوا في منطقة الثغور.

وفي شمال افريقيا سنة ١٢٤هـ/ ٧٤٢م حدثت معركة حاسمة بين الجيش العربي بقيادة حنظلة بن صفوان الكلبي وجيش البربر الذي يتكون من قبائل زناته وفي مقدمتهم هوارة وكان في جيشين عظيمين، وقد وقعت المعركة قرب القيران في شمال أفريقيا وانهزم فيها البربر، ولكن لم يستطع العرب السيطرة على بقية أجزاء المغرب الأقصى، وبقي البربر هم أصحاب السيادة في هذه المناطق حتى سقوط الدولة الأموية.

واشتد التشيع في أفريقيا وتحريضهم على حكومة الأمويين فيها بعدما أخفقوا في مقاومتهم في المشرق وتوالت الحروب وثورات العلويين وانظم إليهم كثير من القبائل البربرية، وكان لذلك كله صداه في اسبانيا خصوصاً بين البربر الذي يتألف منهم معظم الجيش، فاضطرب أمر الحكم والنظام في الأندلس، ولبثت حكومة اسبانيا العسكرية مدى حين عرضة للخروج والتمرد والثورات خاصةً ثورات الشيعة.

ثورات الشيعة في الأندلس

بعد سقوط الدولة الأموية في دمشق أصبح الجو ملائماً لكي تثمر الدعوات الشيعية التي بدأت تنتشر منذ زمن بعيد في شمال أفريقيا والأندلس خاصةً بين قبائل البربر وقد انتشرت ثورات الشيعة في الأندلس ضد الأمويين وكانت تحمل نفس الأسباب التي كانت عند العلويين في المشرق ومن أهم هذه الثورات: ـ

۞ ثورة شقيا بن عبد الواحد المكناسي

قاد هذا الثائر ثورة عارمة في شرق الأندلس ضد عبد الرحمن الداخل، ويعتبرها المؤرخون من أخطر الثورات التي واجهت عبد الرحمن ولعدة سنوات حيث استمرت من سنة (١٥١ ـ ١٦٠هـ) أي (٧٦٨ ـ ٧٧٧م)، وامتدت ثورته ما بين ماردة Medida وقورية Goria غرباً وإلى الثغور ووادي الحجارة Guadalajara وقوينقة Cuenca شرقاً أي جميع الهضبة الوسطى.

ويُذكر بأن هذه الثورة كانت أول الثورات الشيعية في الأندلس وأول محاولة لقيام دولة شيعية في الغرب الإسلامي، ولم يتمكن عبد الرحمن الداخل من هذا الثائر إلا بمؤامرة دبرها بعض أصحابه له فاغتالوه، فذاعت دعوته بين البربر في تلك المنطقة، وكان البربر على أهبة الاستعداد للثورة ضد العرب، لأن الخصومة كانت معهم قديمة، ولما كثر أتباع الثائر الفاطمي سار إلى منطقة شنتبرية Santaver فاستولى عليها وجعلها مركزه العام ثم اتجه بجيوشه غرباً فاستولى على ماردة وقورية ومدلين وعلى جميع المنطقة الواقعة حولها بين نهري التاجة ووادي يانة، فقويت دعوته وعظم أمره، فعهد عبد الرحمن إلى والي طليطلة أن يقمع ثورة الفاطمي فبعث إلى شنتبرية جيشاً بقيادة سليمان بن عثمان، ولكن الفاطمي خرج عليه وهزمه وأسر قائده سليمان وقتله، وزاد هذا الظفر بقوة الفاطمي ورفع معنويات جيشه وفي العام التالي سنة ١٥٢هـ خرج عبد الرحمن بنفسه واقتحم منطقة الثورة ونشبت بينه وبين البربر بقيادة

المكناسي معارك عديدة ثبت فيها البربر وهُزم عبد الرحمن مع جيشه ثم انسحب مع من تبقى من جنوده إلى قرطبة.

ثم بعث عبد الرحمن عدة حملات عسكرية لإخماد ثورة الفاطمي ولكنها لم تفلح وكان منها حملة عسكرية بقيادة مولاه عبد الله بن عثمان، فخرج إليه الفاطمي فهزمه هزيمة شديدة ففر عبد الله واستولى الثائر على معسكره وأسلاب جيشه وقتل جماعة كبيرة من وجهاء جنده وكان ذلك سنة ١٥٥هـ.

وهكذا فشلت الحملات المتوالية لإخماد الثورة في تلك المناطق فعاد عبد الرحمن بجيش جديد وأرسله الى شنتبرية ولكن هذه المرة استقدم كبير البربر واسمه هلال المديوني وأقره ما بيده من أنحاء واصدر له أمراً بإدارة الأنحاء التي غلب عليها الفاطمي الثائر، وفوض إليه استخلاصها منه، وكان لتلك الحيلة أثرها في بث الخلاف في صفوف البربر، فانفض عن الثائر كثير من أصحابه وأنصاره واضطر أن ينسحب من شنتبرية إلى الشمال ليعتصم بالجبال.

ولكن في هذه الأثناء نشبت فتن أخرى في أنحاء الأندلس ضد عبد الرحمن الداخل، منها في أشبيلية بقيادة حيوة بن ملامس الحضرمي وفي باجة بقيادة عبد الغافر اليحصبي وفي لبلة بقيادة عمر بن طالوت وغيرها، ولكن عبد الرحمن استخدم حيل عسكرية استطاع بها أن يخلق الفتن في صفوف الثوار وينسحب معظم أنصارهم وبالتالي استطاع أن يخمد معظم هذه الثورات ويقتل أصحابها وكان ذلك في سنوات ١٥٧هـ و ١٥٨هـ، وفي العام التالي قام عبد الرحمن بمطاردة الثائر الفاطمي فالتجأ إلى الجبال وتحصن بها كما لا زال يسيطر على شنتبرية وماردة وغيرها وأخذ يتحصن وينظم مقاتليه ويحسب كل حساب لمراوغات وخداع عبد الرحمن وكيف لا وهو الذي ورث ذلك عن أهله الأعراب بني أمية والتي عرفت بتعصبها القومي وبطشها الدموي وجورها على الموالي، كل ذلك كان مخالفة لأبسط القيم الأخلاقية وللدين الحنيف.

ويُعد عبد الرحمن حملة أخرى من أكثر الحملات شدة وعدداً وقوة بقيادة تمام بن علقمة وعبد الله بن عثمان فلقيهما الثائر الفاطمي ووقعت بينهما معارك شديدة كانت فيها الغلبة للفاطمي المكناسي وهزمت جيوش عبد الرحمن وعادت البقية إلى

قرطبة، بعدها خرج الفاطمي يبشر بدعوته وثورته ضد عبد الرحمن ويدعوا إلى العدل والإنصاف في حكم الأندلس خاصةً التعامل بحسن نية ومساواة مع البربر.

وهذه المرة التجأ عبد الرحمن إلى خطط خبيثة وخدعة لقتل الفاطمي حيث رأى أن الحملات العسكرية التي استغرقت عشرة سنوات لم تحقق شيئاً بالإضافة إلى إنهاك الدولة اقتصادياً وبشرياً وأن الفاطمي لا زال ثائراً تحيط به القبائل البربرية بقوة، لهذا فقد لجأ إلى تدبير مؤامرة داخلية يقوم بها أصحاب الثائر الفاطمي للقضاء عليه، حيث قاما بهذه المهمة اثنان من أصحابه هما أبو معن داود بن هلال وكنانة بن سعيد حيث انقضّا عليه ذات يوم وقتلاه واحتزا رأسه وحملاه إلى عبد الرحمن في قرطبة وبذلك انتهت ثورة الفاطمي سنة ١٦٠هـ / ٧٧٧م. وهذا الخط التآمري الأموي استخدمه سابقاً معاوية مع خصومه حيث سمَّ مالك الأشتر عندما ولاه الإمام علي عليه السلام مصر ثم سمّ الحسن بن علي عليه السلام عن طريق زوجته، واستخدمه أيضاً هارون الرشيد في قتل إدريس العلوي مؤسس دولة الأدارسة في المغرب عن طريق قارورة عطر.

ولكن مع الأسف هناك بعض المؤرخين لا يذكرون هذه الثورات بإنصاف ويعتبرون الدعوة للتشيع بمثابة خروج عن الإسلام، لهذا نجد ذكر ثورات الشيعة في كتب المؤرخين يشوبها السخرية والتعصب، مما يدعوا إلى مراجعة وتحقيق كتب التاريخ من قبل العقلاء وأهل العلم.

وكان قد تحالف مع الثائر الفاطمي ثائر آخر هو دحية الغساني وسيطر على بعض حصون البيرة (غرناطة) وكان سابقاً موالياً لعبد الرحمن الداخل ولكن لما رأى بشاعة ودموية عبد الرحمن وأنه لم يتورع عن قتل أصدقاءه وحلفاءه ونقض المواثيق، انفصل عنه والتحق بثورة شقيا الفاطمي المكناسي، ولكن عبد الرحمن أرسل إليه جيشاً كبيراً فتحصن الثائر في البيرة (غرناطة) ودافع بشدة وقوة ودارت بينهما معركة طاحنة انتهت بانتصار جيش عبد الرحمن وقتل الثائر دحية الغساني.

۞ ثورة الحسين بن يحيى الانصاري ـ بن سعيد بن عباد ـ

ثار سنة ١٦٠هـ في سرقسطة Zaragoza وخلع طاعة عبد الرحمن، ويُذكر أن جد هذا الثائر سعيد بن سعد كان من شيعة الإمام علي عليه السلام وقد ولى له اليمن وولى أخوه

قيس بن سعد مصر، ويذكر ابن حزم بأن من سلالة هذه الأسرة الشاعر أبو بكر عباد بن ماء السماء الذي أصبح فيما بعد شاعر الحموديين والناطق بلسان الشيعة أيام ملوك الطوائف، كما يذكر بعض المؤرخين لقب الحسين بابن عباد الخزرجي.

وثار مع الحسين بن يحيى والي برشلونة وجيرون سليمان بن يقضان الكلبي الملقب بـ (الأعرابي) وتحالفا على قتال عبد الرحمن الداخل وخلعه وكان ذلك سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٤م، وكان عبد الرحمن في ذلك الوقت مشغولاً في مقاتلة الثائر الفاطمي شقيا عبد الواحد في الجنوب والذي سيطر على شنتبرية وماردة وغيرها، فأرسل عبد الرحمن جيشاً الى الشمال بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي فهزمه سليمان وأسره وتفرق جيشه وكان ذلك سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٥م، بعدها استفحل أمر الثورة في الشمال في برشلونة وقويت شوكة الحسين بن يحيى وسليمان، ولكن هؤلاء زعماء الثورة لم يطمأنوا إلى ذلك النصر المؤقت لما يعلمون من عزم عبد الرحمن الأعور من انتقامه وحيله وأنه سوف يجيش الجيوش لقتالهم، لهذا فكروا في التحالف مع الإفرنج فقد انتخب سليمان الأعرابي مع عدد من الزعماء الثوار للقاء شارلمان وذهبوا للقائه وكان يقيم يومئذ في بلاطه في مدينة بادربون من أعمال وستفاليا شمال ألمانيا وتم اللقاء في ربيع سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٧م، وعرض عليه سليمان المحالفة لقتال عبد الرحمن وأن تكون الولايات الشمالية الأندلسية تحت إمرة شارلمان وتعهد بمعاونته وتسلم المدن إليه، وأن يتحرك بجيشه لغزو هذه المدن والعمل على استقرارها كما يسلم إليه أسيره القائد ثعلبة بن عبيد قائد جيش عبد الرحمن.

وكان مع سليمان الأعرابي ولد ليوسف الفهري حاكم الأندلس السابق مع صهره جاء ليسعيا كذلك إلى خلع عبد الرحمن، والروايات العربية واللاتينية تجمع على أن سليمان وحلفاؤه أعلنوا خضوعهم لملك الإفرنج وانضوائهم تحت رايته، في حالة دخوله إلى شمال الأندلس مثل برشلونة وسرقسطة وغيرها، ولبى ملك الإفرنج دعوة الثوار المسلمين ووافق على عروضهم وبعث إليه سليمان بأسيره ثعلبة بن عبيد عنواناً للثقة والتحالف فسجن في إحدى القلاع الفرنسية.

وكان سليمان يعمل مستقلاً لنفسه لتحطيم سيادة قرطبة والاستقلال بما في يديه تحت رعاية وحماية ملك الإفرنج، ولكن ملك الإفرنج كانت له مشاريع أخرى،

وكانت السياسة الإفرنجية ترمي إلى تعضيد روح الثورة وزرع الخلافات في اسبانيا المسلمة، ولا سيما منذ انهارت سيادة الإسلام في جنوب فرنسا وارتد المسلمون إلى ما وراء البرنيه. ويُذكر بأن المسلمين منذ بداية الفتح الإسلامي لاسبانيا كانوا قد سيطروا على جنوب فرنسا وحكموها حوالي ثلاثين سنة وقيل نصف قرن، ولكن عندما انهزموا في معركة بواتيه القريبة من باريس وقُتل قائدهم عبد الرحمن الغافقي انسحبوا منها إلى داخل اسبانيا إلى الأبد.

وكانت لسليمان الأعرابي علاقات مع ملك الإفرنج منذ سنة ٧٦٠م وكان يسعى بهذا التحالف إلى تأييد استقلاله كما كان غيره من الثوار يسعون بنفس المسعى وكان الإفرنج يسارعون إلى تلبية هذه الدعوات ويتخذونها ذريعة للتدخل في شؤون اسبانيا المسلمة، ويُذكر بأن الخلفاء العباسيين كانوا في علاقة وثيقة مع ملوك فرنسا وكان هنالك تبادل للسفراء وكانوا يطمحون إلى محاصر عبد الرحمن الداخل وإسقاطه وعودة الأندلس إلى الخلافة العباسية، وفعلاً كانت هناك دعوات تبذل لنشر الدعوة العباسية في الأندلس وكان يتزعم ذلك عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلي حيث نزل في مدينة (تدمير) يدعو للخلافة العباسية والتحريض ضد عبد الرحمن الداخل.

وبعد الاتفاق الذي تم بين ملك الإفرنج وزعماء الثوار بقيادة سليمان الأعرابي فقد حشد شارلمان جيشاً ضخماً في العدة والعدد، بحيث يذكر المؤرخون بأن الحملة بهذه الضخامة كان شارلمان يرمي من ورائها السيطرة على قرطبة واسبانيا كلها أو على الأقل نصفها الشمالي، وبارك البابا هادريان الحملة واتخذت في الظاهر طابعاً دينياً، وتحرك شارلمان بجيشه الضخم نحو اسبانيا في ربيع سنة ٧٧٨م وقسم جيشه إلى قسمين، الأول عبر جبال البرنيه من الناحية الشرقية وعبر القسم الثاني بقيادته من الناحية الغربية من الطريق الروماني القديم فوق جبال آكام (جان دي لابور) الشاهقة التي تشرف على مفاوز (مفارق) رونسفال الوعرة، على أن يجتمع الجيشان على ضفاف نهر أبرة Ebro أمام مدينة سرقسطة حيث يلتقي شارلمان بحلفاءه المسلمين الذين اتفقوا معه وهم ينتظرون قدومه، وكان في هذه الرحلة قد حاصر شارلمان بمبلونه Pamplona عاصمة نافارا Navarra وأخذها بالقوة، وهذه إشارة إلى أن شارلمان

كان يهدف بحملته إلى السيطرة على المدن النصرانية والإسلامية على حد سواء وليس له أهداف دينية كما هو ظاهر من الحملة.

وتذكر بعض المصادر بأن سليمان بن يقضان (الإعرابي) كان يتردد عندئذ بانتظام على بمبلونه وأنه وفقاً لتعهداته سلم الرهائن إلى شارلمان التي اتفقوا عليها سابقاً، وبعد الاستيلاء على بمبلونه سار شارلمان مع سليمان إلى سرقسطة وكان الجيش الآخر قد اخترق منطقة جيرونة وبرشلونة واتجه غرباً نحو سرقسطة حيث التقى بالقوات التي يقودها شارلمان.

وهنا نقف عند نقطة مهمة وهي العودة إلى الثائر الشيعي الحسين بن يحيى الأنصاري والي وحاكم سرقسطة، فقد كان هذا الثائر حليفاً لسليمان منذ البداية وكان عضده في مشروعه لاستدعاء الإفرنج وبالرغم من أنه لم يذهب إلى بلاط الملك في بادربون ولا إلى بمبلونه فقد كان موافقاً على العهود التي قطعها، ولكن الذي حدث هو أن الحسين رأى أن سليمان اتخذ مكان الصدارة والزعامة التي اتشح بها إزاء الإفرنج، فنشبت بينهم الخصومة كما أنه خشي التورط في حلف الإفرنج فعدل موقفه في آخر لحظة حينما شعر بمسير الإفرنج إلى مدينته، لهذا فإنه قد تحصن في سرقسطة وهيأ جيشه للدفاع عنها، وعندما وصل شارلمان وحليفه سليمان رفض الحسين أن يستقبله بل وجدا المدينة متأهبة للدفاع والمقاومة وهنا تسجل نقطة ذكية وممتازة للثائر الأنصاري حيث ما شاهده من حصار بمبلونه وأخذها بالقوة رغم أنها نصرانية من قبل شارلمان، كانت تلك درساً واضحاً لقراءة نوايا وأهداف الإفرنج في حملتهم هذه والشك في حلفهم مع الثوار المسلمين.

وفي نفس الوقت قدم سليمان إلى شارلمان عدد كبير من الرهائن من الأشراف والأعيان وفي مقدمتهم ثعلبة بن عبيد لإثبات حسن النوايا والصدق في التعهدات، ولكن سليمان لم يستطع إقناع الحسين بفتح أبواب سرقسطة ولم يستطع شارلمان في نفس الوقت الاستيلاء عليها حيث ردت المدينة كل هجمات الإفرنج وانتصرت عليها، وعجز سليمان أن يحقق شيئاً في وعوده من تسليم المدن والحصون الواقعة في تلك المنطقة، كما أن شارلمان لم يشأ أن يخوض معارك في تلك الهضاب الصعبة وهو لم يتهيأ لها، وارتاب من جهة أخرى في نية سليمان وموقفه فقبض عليه.

وكانت وقفة الحسين الثائر الشيعي وصموده مثالاً للشجاعة والفداء وحرصاً على عقيدته وشعبه حيث لا سامح الله لو كان قد فتح أبواب سرقسطة فسوف يصير مصيرها مثلما فعلوا في بمبلونه من حرق وتدمير وإباحة دماء ويضاف على ذلك ستكون المناطق الشمالية من اسبانيا تحت سيطرة الإفرنج.

وأخيراً قرر شارلمان الانسحاب والعودة إلى فرنسا، غير أن الكثير من الروايات تذكر بان سرعة الانسحاب يعود إلى أسباب أخرى وهي أن السكسون المارقين حينما علموا أن الملك شارلمان في سرقسطة شقوا الطاعة وخربوا وأحرقوا الأراضي حتى ضفاف الراين فلما سمع الملك بذلك عاد مسرعاً إلى فرنسا.

ارتد شارلمان مع قواته وفي ركبه سليمان أسيره وعدد آخر من الرهائن وسار شمالاً نحو نافارا فدخل بمبلونه مرة ثانية وهدم حصونها وأسوارها ثم غادرها، ولكن أهل نافارا لما رأوا ما حل في بلادهم من دمار وخراب جمعوا فلولهم وبالتعاون مع المسلمين وقرروا الانتقام ومهاجمة جيش شارلمان، وتذكر الرواية العربية بأن شارلمان اتجه عائداً إلى جبال البرنيه عن طريق هضاب رونسفال المؤدية إلى باب الشزري، وأن ولدا سليمان مطروح وعيشون عادا إلى الاتفاق مع الحسين بن يحيى على مقاومة الإفرنج وجمعا في الحال قوات أبيهما وأتباعه وكذلك قوات من جيش الحسين وسار هذا الجيش في أثر ملك الإفرنج يحاول مهاجمته وإنقاذ سليمان من أسره، وكان عبور شارلمان من نفس الطريق الذي أتى منه أي مفاوز رونسفال ويقع في ممر رونسفال Roncesvalles والذي يسمى في العربية باب شيزورا أو باب الشزري Portus ciserei ويقع في طرف البرنيه الغربي شمال شرق بمبلونه وعلى قيد عشرين كيلومتر منها وهو أحد ممرات عدة كانت تستعمل منذ الرومان لاختراق البرنيه من الشمال أو الجنوب، وهنا حدثت المفاجأة ذلك أن الجيش الإفرنجي ما كاد يبدأ عبور الجبال حتى أشرف المسلمون بقيادة عيشون ومطروح على مؤخرته وهاجموه بشدة موجعة وفصلوا عنه مؤخرته وانتزعوا منها الأسلاب والأسرى وفيهم سليمان بن يقضان.

وتذكر المصادر اللاتينية بأن الهجوم كان بالتعاون بين المسلمين بقيادة أولاد سليمان وبين البشكنس النصارى انتقاماً لما أنزل الإفرنج في بلادهم من دمار وعبث، حيث فاجئوا الجيش في هذه الممرات الصعبة والتي أدرا بها أهل سكان نافارا أو البشكنس،

وكان هذا الهجوم المفاجئ قد فصل مؤخرة الجيش الإفرنجي ومزقته شر تمزيق وهلك عدداً عظيماً من سادة الجيش الإفرنجي وفرسانه منهم القائد الكبير رولان Rolan ولم تسمح المفاجئة المذهلة السريعة بأي عمل أو محاولة منظمة لإنقاذ الفرق المنكوبة، وكانت نكبة مروعة لبث صداها يتردد مدى عصور في أمم الغرب النصرانية، وتضع الرواية الإفرنجية تاريخ الموقعة في ١٨ أغسطس ٧٧٨م/ ذي القعدة سنة ١٦١هـ.

وبعد نكبة جيش الإفرنج وقع خلاف شديد بين الحسين بن يحيى الأنصاري وسليمان بن يقضان والي برشلونه انتهت الخصومة بقتل سليمان وهو في المسجد، وبذلك انفرد الحسين الثائر في حكم سرقسطة وما حولها واخذ ينظم شؤون دولته ويحصن قواعده، ولكن عبد الرحمن الداخل سار بجيش ضخم سنة ١٦٢هـ/ ٧٨١م إلى سرقسطة وحاصرها وفي نفس الوقت وفد عليه عيشون بن سليمان وقد كان قد فر عند مقتل أبيه إلى أربونه وانظم إليه بمن معه في مقاتلة الحسين، فلما اشتد الحصار بالحسين طلب الصلح وقدم ابنه سعيد رهينة فأجابه عبد الرحمن ملتمسه وأقره والياً على سرقسطة، وكان سعيد بن الحسين قد فر من معسكر الأمير أثناء الطريق، ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة توجس شراً من عيشون بن سليمان فأمر بقتله.

ولما رأى الحسين ما فعله عبد الرحمن بعيشون بن سليمان وأتباعه ثم رأى سعيد قد عاد إليه سالماً عاد للثورة مرة أخرى وسيطر على سرقسطة وما حولها، ولكن عبد الرحمن عاد إليه بجيش بقياد غالب بن تمام بن علقمه فخرج الحسين لقتاله ووقعت بينهما معارك شديدة هُزم فيها الحسين ثم انسحب إلى داخل المدينة وتحصن فيها بكل ما أوتي من قوة، ولكن غالب استمر في حصاره غير أنه لم يستطع اقتحام المدينة، وفي العام الثاني سنة ١٦٧هـ/ ٧٨٣م سار عبد الرحمن بنفسه إلى سرقسطة وحاصرها بشدة وضربها بالمنجنيق ضرباً عنيفاً حتى هدم أسوارها واقتحمها عنوة وقبض على الحسين وجماعة من أصحابه وقتلهم جميعاً وشرد الكثير من أهلها، وبهذه الواقعة انتهت ثورة الحسين بن يحيى الأنصاري والتي تعد إحدى الثورات الكبير بعدما دامت سبعة سنوات وهددت عرش بني أمية في الأندلس.

۞ ثورة احمد بن معاوية بن هشام ـ المعروف باقط ـ

وهو من ولد هشام بن عبد الرحمن وقد ثار سنة ٢٨٨هـ في زمن الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الداخل، وكانت ثورته في منطقة الجوف وبالتحديد في أحواز طليطلة وطلبيرة، وقد تأثرت بالدعوة الفاطمية تأثراً كبيراً ودعا إلى التشيع وحب آل البيت، كما تذكر بعض المصادر أنه ادعى أنه المهدي وأنه جاء لإصلاح هذه الأمة بعدما عم فيها الجور والفساد، فالتفّت حوله جموع غفيرة من البربر وأعلن الجهاد ضد النصارى، وقدم إلى مدينة ثامورا لافتتاحها Zamora وكتب إلى الفونسو رسالة عنيفة يدعوه بها إلى الإسلام وينذره بالويل إذا أبى، وكان الفونسو يومئذ في قواته على مقربة من ثامورا فسار إلى لقاء المهدي وقواته، ودارت المعركة في مخاض نهر دويرة أمام أسوار ثامورا فهزم النصارى أولاً وارتدوا وحاصر المهدي ثامورا.

ولكن حدثت خيانة في جيش المهدي أثناء الحصار حيث انسحب زعماء البربر في قواتهم خشية من تفوقه عليهم وغدره بهم، وصمد ابن القط فيمن بقي معه، ثم نشبت معركة بينه وبين النصارى انتهت بقتل ابن القط وتمزيق قواته واحتز رأسه وسمر فوق أحد أبواب ثامورا، وكان ذلك في شهر رجب سنة ٢٨٨هـ/ يوليو ٩٠١م.

۞ ثورة عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر ـ

هو حفيد عمار بن ياسر صاحب الإمام علي عليه السلام والذي قُتل في معركة صفين، وقد كان عبد الله أحد قواد موسى بن نصير أثناء فتح الأندلس، ويعتبر واحد من البيوت العربية الشيعية التي يعود لها الفضل في انتشار التشيع في الأندلس، وقد تولى عبد الله ولاية البيرة (غرناطة) وحسب التقسيم للقبائل حول المدن الاسبانية فقد سكنت قبائل يمنية في البيرة، ويذكر ابن حيان بأن يوسف الفهري والي الأندلس عندما سمع بوصول عبد الرحمن الداخل (الأعور) ودخوله الأندلس كتب إلى عبد الله بن سعيد يأمره بالقبض على عبد الرحمن، وقد أجابه ابن سعيد انه من الصعب اتخاذ أي إجراء ضد عبد الرحمن الذي كان محتمياً من قبل مواليه وعدد كبير من المؤيدين وأنه لم يتمكن أحد من التصدي له سوى الأمير يوسف نفسه.

وقد علم موالي بني هذه المراسلات ولهذا فقد اخفوا عبد الرحمن في المناطق الجبلية المجاورة، وفي الوقت نفسه حاولوا تضليل يوسف الفهري بالكتابة إليه بأن عبد الرحمن لم يعبر الأندلس طالباً الملك والسلطان كما يظن الأمير بل جاء يطلب الثراء والأمان بين مواليه، كما يُذكر بأن عامل البيرة عبد الله بن سعيد توجه بجيش كبير وهاجم عبد الرحمن وأنصاره وحدثت بينهما معركة شديدة انتهت بانتصار عبد الرحمن ومقتل عبد الله بن سعيد.

❁ ثورة عمر بن حفصون ـ

يعتبر عمر بن حفصون من أعظم ثوار الأندلس الذين ثاروا وتمردوا على دولة بني أمية وكان ظهوره في زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (٢٨٨هـ/ ٨٥٢م)، وقد ظهر عمر بن حفصون في منطقة تسمى جبل ببشتر والتي تقع بين رندة ومالقة جنوب الأندلس، ويُذكر أنه سليل أسرة من المولدين ترجع إلى أصل نصراني قوطي فجده عند الفتح الفونسو القس وجده الرابع جعفر هو أول من اعتنق الإسلام، وكان والده حفصون ذا مال وجاه ونشأ ولده عمر فاسداً سيء السيرة عنيفاً يعتدي على المال والنفس، ولم يلبث أن هجر أسرته وأطلق العنان لهواه وغيه والتف حوله جماعة من الفُسّاد والبغي، فألف منهم عصابة معتدية ناهبة، ونزل بمكان منيع بجبل ببشتر الواقع شمال شرق جبال رندة وكان ذلك في سنة ٢٦٧هـ/ ٨٨٠م.

ويُذكر بأن سبب ظهور عمر بن حفصون وثورته في هذه المنطقة هو اضطرام الفتنة في لورة ـ ريّه ـ والجزيرة بسبب عنف يحيى بن عبد الله بن يحيى عامل الأمير محمد الأموي في ريّه، وفرض الضرائب على أهلها وقسوته وبطشه، لهذا فقد امتنع الناس عن طاعته واعتصموا بجبالهم وحدث بينهم وبين جيش الوالي معارك كثيرة بدأت سنة ٢٦٥هـ، وفي هذا الجو المضطرم ظهر ابن حفصون وأخذ يغير على أطراف ريّه ويوسعها تخريباً وسبيا ونهباً، ثم يعود إلى حصنه في جبل ببشتر وقد انظم اليه ثائرا آخر يدعى ابن حمدون ونظما جيشهما واشتبكا مع جند الأمير محمد فانهزم الثوار وجرح ابن حفصون، غير أن الأمير محمد توفي سنة ٢٧٣هـ، مما أعطى لابن حفصون فرصة كبيرة لاستعادة تنظيم مقاتليه ثم أخذ يهاجم معظم الحصون الواقعة في المنطقة حتى

استطاع أن يسيطر على ريّه ورندة واستجه ثم سيطر على أرشدونه ومالقة وجيان وغيرها، وأخذ يطمح أن يسيطر على الأندلس كلها.

ولكن قوات الأمير الأموي المنذر بن محمد الذي جاء بعد والده المتوفي استطاع استعادة الكور والحصون التي استولى عليها ابن حفصون ثم حصره في جبل ببشتر وأجبره على الاستسلام فطلب الأمان من الأمير المنذر وعرض التسليم والخضوع فأجابه الأمير وأعطاه الأمان، ولكن ابن حفصون فر من الجيش وعاد مرة ثانية إلى حصن ببشتر وامتنع بها وخان العهد والأمان الذي أعطاه الأمير له، وهكذا بقي ابن حفصون في كر وفر مع الحكومة المركزية دون ملل أو كلل حتى وفاته سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م، وقد دامت ثورة ابن حفصون حوالي ٤٠سنة حتى مجيء الخليفة عبد الرحمن الناصر، وكان المؤرخون العرب يعدون وفاته فاتحة خير للمسلمين وطالعة سعد واجتثاث للفتنة، وقد حاول أبناء عمر بن حفصون السير على نهج أبيهم في الثورة ولكنهم لم يستطيعوا مواجهة عبد الرحمن الناصر فخضعوا له وأطاعوه وسلموا قلاعهم وحصونهم إلى الأمير.

وكان ابن حفصون ينتمي إلى المولدين وهم الأسبان الذين اسلموا منذ الفتح، وقد كانوا رغم اندماجهم بالمجتمع الإسلامي يحتفظون دائماً بنزعة استقلالية واضحة ويبغضون العرب والبربر معاً، ويذكر المؤرخين بأن ابن حفصون ارتد عن الإسلام هو وأسرته سنة ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م، واعتنق النصرانية واتخذ له اسماً نصرانياً، لهذا فقد رأى المسلمون أن قتال ابن حفصون هو نوع من الجهاد.

وفي عام ٣٠٦هـ/ ٩٢٨م، خرج عبد الرحمن الناصر من قرطبة إلى ببشتر معقل ابن حفصون سابقاً لتفقد شؤونها ودخلها وجال في أرجائها وطهرها من آثار ابن حفصون فصلى في مسجدها الجامع وأمر أن تقام به الصلاة، وكان قبر ابن حفصون في المدينة فأمر عبد الرحمن بنبش القبر واخرج جثته وفحصها فتبين من هيئتها وكونه ملقياً على ظهره مشبوك الذراعين على الصدر مستقبلاً المشرق أي أنه دُفن على دين النصارى، وشهد بذلك الفقهاء والناس والعسكر وغيرهم، ثم أمر عبد الرحمن بحمله إلى قرطبة وعلقت هناك جثته على أحد أبواب المدينة، ثم أمر عبد الرحمن بالقبض على أرختنا ابنه عمر بن حفصون وإعدامها لارتدادها عن الإسلام.

وتذكر بعض المصادر بأن ابن حفصون كانت له علاقات ودية مع الدولة الفاطمية، وأنهم قد أرسلوا إليه داعين لمساعدته في حروبه ضد الأمويين وأمدوه بالأموال والسلاح، وكان الفاطميون يفكرون بالسيطرة على الأندلس وجعلها جزء من دولتهم ولهذا فهم يسعون إلى دعم الثوار لإسقاط الحزب الأموي في الأندلس بغض النظر عن توجهاتهم السياسية أو المذهبية.

ولكننا نجد هناك كثير من التناقضات التاريخية في الحديث عن هوية هذا الثائر، فمنهم من يصفها بأنها إحدى الثورات الشيعية التي قام بها البربر ومنهم من يقول أنه انتحل صفة المهدي وأنه مخادع وأنه اعتنق النصرانية وأن أصله غوطي نصراني وهكذا.

ولكن الوقائع التاريخية لهذه الثورة أثبتت انه رجل متقلب ليس له دين أو فكر أو مذهب وإنما كان يطمح إلى الوصول للسلطة بأي ثمن. لهذا نرى أنه مرة دعى إلى الخلافة العباسية ثم الى الخلافة الفاطمية ثم دعا إلى إبعاد العرب والبربر من الحكم والسلطة وأخذ الثار للمولدين الذين استعبدوهم وهكذا.

سقوط الخلافة الاموية

لما توفي المنصور محمد بن ابي عامر سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م، في مدينة سالم ودُفن فيها، بويع ابنه عبد الملك بالخلافة وفي هذه المرحلة طويت آخر صفحة من صفحات الازدهار والقوة وآخر صفحة من الحكم الأموي في الأندلس بل في العالم الإسلامي كله، ثم فتحت صفحات أخرى من الانقسامات والفتن وظهور إمارات كثيرة مستقلة وهو ما يطلق عليه بعصر الطوائف.

ولما توفي عبد الملك تولى السلطة أخيه عبد الرحمن الملقب شنشول أو سنجول Sancho وكانت أمه ابنة ملك نافارا Navara قد أهداها الملك إلى المنصور فأسلمت وأحسنت إسلامها وكانت امرأة صالحة ذكية، وكان شنشول سيء التصرف، به طموحات لا تتناسب مع فهم الواقع السياسي للبلد وإمكانياته، إلى جانب ذلك كان خليعاً ماجناً لا يتورع عن شرب الخمر علانية، لكل ذلك ونظراً لصفات هذا الحاكم السيئة وغيرها من الأسباب قامت الفتن والاضطرابات في زمنه، ففي سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م، توجه شنشول بحملة عسكرية إلى الشمال لتأديب المسيحيين الذين أخذوا يقومون بغارات متعددة على الأراضي الإسلامية، وقد علم أهل قرطبة خاصة الناقمين على شنشول بخروج شنشول من قرطبة والتوجه إلى الأراضي الشمالية فانتهزوا الفرصة وأحاطوا بالقصر وأعلنوا الثورة واستولوا عليه.

ولما علم شنشول بذلك عادا إلى قرطبة ولما وصلها تفرق جنده منه فاضطر إلى الالتجاء لأحد الأديرة ثم قُبض عليه وقُتل، ثم بويع محمد بن هشام المرواني بالخلافة ولُقب بالمهدي سنة ٣٩٩هـ، وما كاد يستقر أمره حتى شرع بإتباع سياسة أزالت كل أثر للنفوذ البربري وجند أفريقيا، ولكن زعماء البربر سخطوا عليه نتيجة لهذه السياسة الظالمة فثاروا عليه بزعامة رشيد بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، ولكن محمد تمكن من الانتصار عليهم وقتل عدد منهم ومن ضمنهم رشيد وفرَّ الباقون إلى طليطلة.

ومن هناك أخذ الزعماء البربر يستعدون لمعاودة الكرّة بقيادة سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر وهو ابن أخت رشيد المقتول، ثم توجه سليمان بجيشه البربري إلى قرطبة والتقى الجيشان في معركة طاحنة في ظاهر قرطبة، وتغلب سليمان فيها على محمد المهدي ثم سار بجنده إلى قرطبة ونصب نفسه خليفة وبايعه الناس بالخلافة سنة ٤٠٠ هـ وتلقب بالمستعين بالله.

وكان سليمان يعتمد على قوة البربر فانتقل بجملة جيشه البربري إلى مدينة الزهراء التي تبعد حوالي ٧كيلومترات عن قرطبة حتى يبعدهم عن أهل قرطبة حيث كانوا في حذر وعدم رضا من عودة البربر إلى الحكم مع سليمان، وحتى يزيل سليمان الخلاف بينه وبين أهلها تمهيداً لدخولها في طاعته ولكنه لم ينجح في ذلك، ثم حدثت فتن أخرى ومعارك بين الفرقاء من البربر الأندلسيين والعامريين وأنصارهم الإفرنج وتعرضت قرطبة للدمار والخراب كما تعرضت للمجاعة وانتشار الأوبئة ثم فرار أهلها إلى المناطق الجبلية المجاورة لها لأنها أكثر استقراراً، وأخيراً عاد سليمان مرة ثانية إلى الحكم وإلى قصر قرطبة بطلب من فقهائها وزعمائها مع جيشه البربري واستقر فيها في ٢٧شوال سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م.

ويُذكر أن هشام المؤيد الأموي ظهر في قرطبة مطالباً بالخلافة وقتل محمد بن هشام المهدي وبعث برأسه إلى سليمان لإرهابه، ولكن سليمان استغل ذلك وحرض خصوم هشام على الانتقام منه، ثم توجه سليمان مع جيشه من مدينة الزهراء إلى قرطبة فانقضّوا على المدينة وخربوها، ويقال أن الخليفة هشام المؤيد قُتل في هذه المعركة، ثم أصبح سليمان حاكم الأندلس وأخذ ينظم شؤون الدولة فعزل جميع الولاة السابقين ونصب بدلاً منهم أنصاره البربر وأقاربه، وقد اعتمد سليمان في حكمه وسلطته على بنو حمود العلويين وهم من أكبر زعماء البربر وقد استقروا في شقندة ضاحية قرطبة، بينما استقر سليمان في مدينة الزهراء، ثم قسم سليمان بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية إرضاءً لهم فأعطى البيرة (غرناطة) لحبوس بن ماكس الصنهاجي وذريته وأعطى جوفي البلاد لمغراوة وأعطى سرقسطة لمنذر بن يحيى التجيبي الذي ساعد سليمان في فتح قرطبة، وأعطى جيان لبني برزال وبني يفرن، وأعطى شذونة ومورور لبني دمر وازداجة.

ثم منح علي بن حمود ولاية سبتة والقاسم بن حمود أخوه ولاية طنجة وأصيلا والجزيرة الخضراء، وبذلك غلب العنصر البربري على دولة سليمان المستعين مما حمل فتيان العامريين على الهرب إلى شرق الأندلس خوفاً على أنفسهم من البربر، وأقاموا لهم دولة في شاطبة ودانية ولورقة وميورقة والمرية.

ويذكر ابن الخطيب الأندلسي (٧١٣هـ/ ١٣١٣م) أن بعض العامريين والمؤيدين لهشام الخليفة المقتول أرسلوا رسالة إلى علي بن حمود أمير سبتة وثيقة منسوبة إلى هشام المؤيد بخطه عهد فيها بأمر الخلافة بعده إلى علي بن حمود ثم أنهم تعهدوا بتذليل الصعاب وهونوا له أمر الاستيلاء على الخلافة، وأشار إليه حبوس الصنهاجي صاحب البيرة وخيران العامري صاحب المرية بالتوجه إلى مالقة والاستيلاء عليها، بينما يذكر ابن عذاري أن هشام المؤيد: (عندما رأى من اضطراب أمره وتيقن من انصرام دولته، صير إلى علي بن حمود ولاية عهده، وأوصى إليه بالخلافة من بعده وأرسله إلى سبتة بذلك سراً وولاه طلب دمه واستكتمه السر فيه الى اوانه وبلوغ زمانه). ولما بلغ سليمان المستعين نبأ تحالف علي بن حمدون وخيران العامري مع تأييد حبوس الصنهاجي صاحب البيرة عليه وعلم بمسير جيشهما إليه فعظم عليه الأمر وخرج بمن تبقى من رجاله للقاء جيوش ابن حمدون وخيران واشتبك الفريقان في محرم سنة ٤٠٧هـ فانهزم جيش سليمان وقبضوا عليه وعلى أخيه وقُتلا، ودخل علي بن حمود قصر قرطبة في ٢٢محرم سنة ٤٠٧هـ/ يوليو١٠١٦م، وقد أظهر وثيقة هشام المؤيد وعهده إليه.

واجتمع زعماء القبائل البربرية والعربية في باب السدة في قصر قرطبة وبايعوا علي بن حمود بالخلافة، في ٢٣محرمسنة٤٠٧هـ وتلقب بالناصر لدين الله، وبذلك تم تأسيس أول دولة علوية شيعية في الأندلس يخطب باسمها على منابر الأندلس وقد سيطرت على معظم البلاد وبايعتها غالبية الفرقاء من العرب والبربر. وكان الحموديون يعودون في نسبهم إلى إدريس بن الحسن مؤسس دولة الأدارسة في المغرب، وسنأتي على ذكرها تفصيلاً لاحقاً

الخلافة العلوية في الأندلس
دولة بني حمّود

بعد سقوط دولة الأدارسة في المغرب وأصبحت المغرب ولاية أندلسية تخضع لحكومة قرطبة، تفرق كثير من زعماء الأدارسة في مختلف الجهات ولاذوا بالاختفاء بعيداً عن بطش الحكام الجدد، وأخذ هؤلاء يترقبون الفرص لاستعادة سلطانهم وملكهم الذي أخذه الأمويون، وهاجر عدد كبير من هؤلاء الزعماء إلى الأندلس من البربر والمغاربة وانضووا تحت لواء الدولة العامرية في أواخر عهدها، وشكلوا الجيش الضارب القوي للمنصور وساعدوه في دعم سلطته ولم ينسوا تشيعهم بل بلغ نفوذهم أن كانت الشريعة السنية لا تطبق عليهم.

ولما انهارت الدولة العامرية وعم الاضطراب والفوضى في قرطبة ظهر البربر طرفاً بارزاً من أطراف المعركة التي اضطرمت حول السلطة والخلافة، وكانت الخصومة بين الأمويين والبربر تضطرم منذ زمن بعيد لاعتقاد الأمويين أن البربر كانوا أكبر عضد للمنصور في اغتصاب السلطة والقضاء على سلطان بني أمية ومن جهة أخرى، أن البربر غالبيتهم ينتمون إلى التيار الشيعي الذي بدأ ينتشر بشدة في المغرب، وكان التشيع منذ نشأته في المشرق معادي للحزب الأموي.

وقد اصطف البربر إلى جانب سليمان المستعين في صراعه مع محمد بن هشام الملقب بالمهدي والذي سيطر على الخلافة في ١٧ جماد الآخر سنة ٣٩٩هـ/ ١٦ فبراير ١٠٠٩م، وكان من بين زعماء المغاربة الذين قادوا جموع البربر في معركة قرطبة المظفرة رجلان من عقب الأدارسة هما علي والقاسم أبناء حمود بن ميمون بن حمود، ويقول ابن حزم القرطبي: (إذ يرجع نسب علي والقاسم إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﵇) ويقوله أيضاً عبد الواحد المراكشي وابن عذاري وابن الخطيب.

أما المقرّي في كتابه (نفح الطيب) فيقول: (وكان من أمراء البربر المعارضين لسليمان المستعين علي بن حمود من بني علي بن إدريس بن إدريس بن الحسن بن الحسن بن علي

بن أبي طالب ﷺ هرب من هارون الرشيد إلى البربر فتبربر ولده، وبنى ابنه إدريس مدينة فاس..).

ولما استتب الأمر لسليمان المستعين انتقل من قرطبة إلى مدينة الزهراء بحاشيته وقواده البربر وجندهم فاحتلوها وما حولها، ونزل علي والقاسم أبناء حمود قائدا الفرق العلوية بشقندة ضاحية قرطبة، وقبض البربر الذين رفعوا سليمان إلى العرش السلطة الحقيقية فتولوا مناصب الحجابة والوزارة وسائر المناصب الهامة ولم يبقى لسليمان من السلطة إلا الاسم، ورأى سليمان أن يقطع للبربر كور الأندلس وكانوا ستة قبائل رئيسية وقد ذكرنا ذلك سابقاً، وبهذا فقد سيطر البربر على ولايات الأندلس الجنوبية والوسطى وغلب عليها العنصر البربري على العربي.

وكان علي بن حمود الحسني قد ولى حكم سبتة وولى أخوه الأكبر القاسم حكم الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا، وكان علي بن حمود يطمح على أكثر من حكم مدينة ويتطلع إلى الوثوب بحكومة قرطبة المضطربة المتداعية وعدم تأييد أهل قرطبة سليمان وحكومته، يضاف إلى ذلك أن هناك كتاب من هشام المؤيد الخليفة الأموي المخلوع مرسل إلى علي بن حمود يعهد فيه الخلافة إليه ويطلب منه الثأر في حالة قتله، وقد نقل هذه الرسالة عدد من المؤرخين، وذكر المقري: (وكان المؤيد هشام الأموي يشتغل بالملاحم ووقف، أن دولة بني أمية تنقرض بالأندلس على يد علوي أول اسمه عين، فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة ومحو كثيراً من محاسن أهلها كان من أكبر أمرائهم علي بن حمود، وبلغ هشام المؤيد وهو محبوس خبره واسمه ونسبه، فدس إليه أن الدولة صائرة إليك وقال له أن خاطري يحدثني أن هذا الرجل يقتلني يعني سليمان فإن فعل فخذ ثأري)، وكان الفتيان العامريين خصوم سليمان حلفاء طبيعيين لعلي بن حمود وقد راسله خيران صاحب المرية وحثه على أخذ الخلافة وأظهر له كتاباً زعم أنه تلقاه من الخليفة المخلوع هشام المؤيد يوليه العهد ويطلب إليه أن ينقذه من الأسر.

ويقول المؤرخ ابن حيان: (إن هشام المؤيد لما رأى اضطرام أمره وتصرم دولته قد منح علي بن حمود ولاية العهد وأوصى إليه بالخلافة من بعده وأرسل إليه ذلك بسبتة سراً وولاه طلب دمه واستكتمه السر حتى يحين الأوان لذلك)، فذاعت دعوة علي بن حمود ولباها بعض حكام الثغور الجنوبية مثل عامر بن فتوح الفائقي مولا الحكم

المستنصر ووزير ولده المؤيد وكان يومئذٍ حاكما لملقا، وكتب إليه خيران أن يعبر إليه فعبر علي بن حمود سبتة إلى الجزيرة الخضراء في أواخر سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٦م.

وسار في أتباعه من البربر إلى ملقا فسلمها إليه عامر بن فتوح ودعا إليه بولاية عهد المؤيد حالة ظهوره حياً وسار خيران في قواته والتقى بعلي في ثغر المنكب الصغير ما بين ملقا والمرية، فجمع الزعيمان قواتهما ونظما خطتهما للزحف على قرطبة وبويع علي على طاعة المؤيد، ثم انظم إليهما زواي بن زبري وحبوس الصنهاجي في قوة من بربر غرناطة، وخرج سليمان المستعين من قرطبة بجيشه للقائهم والتقى الفريقان في ظاهر قرطبة على قيد عشرة فراسخ منها ونشبت بينهما معركة شديدة انتهت بهزيمة سليمان وقتل عدد من أنصاره وكان سليمان وأبوه وأخوه عبد الرحمن بين الأسرى.

ودخل علي بن حمود قرطبة في الثامن من محرم سنة ٤٠٧هـ/ أول يوليو سنة ١٠١٦م، وبحث عن هشام المؤيد فلم يجده ولما علم أنه قتل أتى سليمان وأبيه وأخوه وقتلهم وأعلن وفاة المؤيد، ودعا علي بن حمود البيعة لنفسه فبويع بالخلافة وتلقب بالناصر لدين الله، وكانت مدة خلافة سليمان المستعين منذ دخل قرطبة إلى ان قُتل ثلاثة أعوام وبضعة أشهر وكانت أمه أم ولد تدعى ظبية ومولده في سنة ٣٥٤هـ.

وهكذا اختتمت الدولة الأموية حياتها بالأندلس وسقطت نهائياً وماتت وقرأت عليها الفاتحة، بعد أن عاشت منذ عصر الإمارة حتى نهاية الخلافة مائتين وثمانية وستين عاماً (٢٦٨) وانهارت دعائم الخلافة الأموية نهائياً بعد أن لبثت منذ عصر هشام المؤيد أربعين عاماً ستاراً للمتغلبين من عامر، وكانت بيعة علي بن حمود بالخلافة هي أول محاولة لإقامة دولة شيعية في الأندلس يحكما علويون من سلالة آل البيت، وهم أولاد إدريس بن الحسن الذي أسس دولة الأدارسة في المغرب.

ولكن من غير السهل على العلويين حكم الأندلس كلها وأخذ البيعة من ثغور جميع أنحاء الأندلس بينما لا زالت آثار الفتن وميل بعض الزعماء إلى الاستقلال بإماراتهم، ولما قبض علي بن حمود زمام الحكم في الأندلس بايعه غالبية الأمراء من البربر والعامريون بقيادة خيران صاحب المرية وكذلك عدد من أمراء العرب، ولهذا اشتد علي في محاسبة الخارجين على القانون وإخماد تمردهم وشغبهم وحماية السلطة

المركزية من عدوانهم.

ويذكر المؤرخون بأن علي كان موفق في سياسته الحديدية حيث عم العدل والأمان قرطبة وأمنت طرقها وضيعاتها وأهل الأندلس جميعاً فأحبه الناس خاصة أهل قرطبة، وكان من معاونيه جماعة من أولياء الخلافة السابقين مثل أبي حزم بن جهور وأحمد بن برد وغيرهما، وقد أخطأ علي في اتخاذ هؤلاء الأمويين معاونين له لأنهم يحملون في دمهم العداء للخط العلوي وسنرى كيف أنهم تآمروا عليه واغتالوه.

ولكن الأمور لم تستقر بسهولة للعلويين حيث استلموا تركة ثقيلة من الانحراف والفساد والظلم والفتن التي تركتها الدولة الأموية وخاصة التعصب القبلي وضرب الموالي من البربر وغيرهم، ولم تمضي فترة طويلة حتى أعلن خيران صاحب المرية خلافه مع علي بن حمود بعدما كان هو أول من سانده وبايعه في الخلافة، وتحالف مع والي سرقسطة المنذر بن يحيى التجيبي وسار الاثنان بجيشهما إلى غرناطة لمحاربة جيش صنهاجة البربري ولكن البرابرة استطاعوا أن يسحقوا جيش خيران والمنذر ويهزموهما شر هزيمة وفرَّ الباقون، وبعد هذه الحادثة علت قوة وسمعة العلويين وهابهم الناس وأطاعوهم.

وقرر علي التشديد على بني أمية خاصةً المتواجدين في قرطبة لأنهم هم وراء الفتن والتحريض على شق الطاعة فاعتقل رؤسائهم وصادر أموالهم وأطلق يد البربر في متابعة وملاحقة الخارجين عن طاعة السلطة المركزية في قرطبة ونزع سلاحهم وفي مقدمتهم وزيره أبو حزم بن جهور الأموي.

ولكن القدر كان يتربص بعلي بن حمود والدولة العلوية الفتية ذلك أنه بينما كان يتأهب في تحضيره جيشاً عظيماً من البربر لإخماد الفتن في جيان وغيرها من المناطق الشرقية والتي لازالت جيوب من بني أمية تتعشعش فيها وتدعوا إلى خلافة بني أمية وهي دعوة كمن ينتظر من الميت أن يعود الى الحياة، وكانت دولة بني أمية تحمل عوامل الانهيار والسقوط في جسدها وروحها من الداخل منذ نشأتها لأنها كانت عنصرية تقدم العرب على البربر وغيرهم من الأفارقة لهذا فقد خلقت لها عدواً يشكل الغالبية العظمى من المجتمع الأندلسي.

فقد تآمر الأمويون على علي بن حمود سراً وهذا الأسلوب عادة ما يستخدمه الأمويون عندما يفشلون في مواجهة الدولة وكسب رضا الناس عندئذٍ يلتجئون إلى اغتيال قياداتها وزعمائها وقد فعلها قبلهم جدهم عبد الرحمن الداخل (الأعور) عندما فشل في إخماد ثورة عبد الواحد الفاطمي حيث اغتاله سراً.

لقد تسلل ثلاثة من فتيان القصر الصقالبة من موالي بني أمية إلى علي بن حمود وهو في الحمام وقتلوه غفلةً وغدراً، وكان ذلك في الثاني من ذي القعدة سنة ٤٠٨هـ/ ٢٣مارس سنة ١٠١٨م وعمره خمسة و خمسون سنة وكانت خلافته عام وتسعة أشهر.

ثم تولى الخلافة من بعده أخوه القاسم بن حمود وكان حينئذٍ والياً على أشبيلية وكان يكبره ببضع سنوات وتلقب بالمأمون وقبض على الفتيان الثلاثة وقتلهم، واستقر في قرطبة عاصمة الخلافة، وكان يحيى بن علي ولد المقتول والياً على سبتة وولده الثاني إدريس والياً على ملقا وقد حضي القاسم بتأييدها ومبايعة البربر ولهذا فإنه عدل عن سياسة الشدة إلى سياسة اللين والمسالمة وأحسن إلى الناس ونادى بالأمان والبراءة ممن يتسور وبراءة الذمة ممن تسور على أحد.

وحاول الخليفة الجديد القاسم بن حمود استمالة الفتيان العامريين والصلح معهم ولكن زعيمهم خيران بقي معتصماً في مدينته المرية Almaria، وأخذ القاسم ينشر دعوته السلمية ويمد سلطانه إلى جميع مناطق الأندلس فاتخذ بطانة من السود واسند إليهم مناصب الرياسة والقيادة ولكنه لم يتخلص من قبضة البربر وسيطرتهم عليه.

ولكن مع الأسف حدثت فتن بين أبناء العائلة العلوية الحاكمة من بني حمود وهو نفس المرض الذي أصاب الحزب الأموي في آخر أيامه، حيث بدأت بينهم صراعات على السلطة، وكان يحيى وإدريس أولاد علي بن حمود قد اتفقا على إسقاط عمهما القاسم والسيطرة على قرطبة، فجمعا جيشاً كبيراً وزحف يحيى بقواته إلى قرطبة، ففر عمه القاسم إلى أشبيلية وفضّل عدم المواجهة مع ابن أخيه مهما كان الأمر، وبالتالي فقد دخل يحيى قرطبة في أول جمادى الأول سنة ٤١٢هـ، وبويع بالخلافة من قبل البربر وتلقب بالمعتلي بالله.

واستقبل البربر والأندلسيون خلافته بالاستبشار والرضي، وكان المعتلي فارساً بارعاً ويؤثر العدل ويجزل العطاء لمن وفد عليه أو مدحه بشعره فأحبه الناس، ولكنه وقع مثل عمه القاسم تحت نفوذ البربر وإمرتهم فاستبدوا به وضيقوا عليه، وبالتالي قرر البربر خلعه في الثاني عشر من ذي القعدة سنة ٤١٣هـ ولم يمضي عليه سوى عام ونصف فغادر قرطبة إلى ملقا، وفي نفس الحال تحرك القاسم بن حمود عمه من أشبيلية تلبية لدعوة البربر فدخل قرطبة في الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٤١٣هـ وجددت له البيعة وتسمى بأمير المؤمنين.

ولكن القاسم لم يوفق هذه المرة في بسط سلطانه وتهدئة الأمور في قرطبة بين البربر والأندلسيين من أهل قرطبة، وكان أهل قرطبة خليط عجيب من السكان ففيها العرب والبربر والصقالبة والأفارقة والمولدين والمسيحيين واليهود ولهم زعامات وقبائل وعشائر، وكانت الفتن والصراعات مشتعلة بينهم وكان من الصعب تهدئة الأمور وفرض السلطة في قرطبة، وقد حدثت معارك داخلية شديدة أيام القاسم بن حمود مما أدى بالأخير إلى مغادرته قرطبة، وتوجه مرة ثانية إلى أشبيلية حيث يوجد ولديه محمد والحسن هناك.

بعد ذلك توجه القاسم وأولاده إلى حصن ومدينة شريش بعد ما ترك أشبيلية إلى القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد، أما يحيى وإدريس أولاد علي بن حمود فقد بسطوا سيطرتهم على المناطق الجنوبية من الأندلس وقسم من بلاد المغرب، ورغم أن العلويين سيطروا على هذه المناطق الشاسعة إلا أنهم لم يفلحوا في توحيد كلمتهم ورص صفوفهم وتغليب مصلحة الدين والمذهب على المصالح الشخصية والذاتية، وهو مع الأسف مرض مستفحل نلمسه لحد هذا اليوم في كثير من بلداننا الإسلامية.

ومضت بضعة أشهر والحكومة في قرطبة فوضى لا ضابط لها وبني حمود العلويين لا زالوا في حصونهم ومدنهم ينتظرون تهدئة الأمور والعودة مرة ثانية إلى قرطبة، وأخيراً قرر يحيى بن حمود أن يسير بجيش كبير إلى قرطبة فدخلها في الخامس عشر من رمضان سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م، وبقي فيها إلى نهاية العام ثم تركها سنة ٤١٧هـ قاصداً ملقا وترك وزيريه أحمد بن موسى ودوناس ابن ابي روح يديران شؤونها، ويبدوا أن بني حمود رأوا أن قرطبة غير صالحة لأن تكون عاصمة للخلافة ومن

المستحيل أن يستقر فيها الوضع وأن يؤتمن عليهم فهم أصحاب فتنة وفوضى، وقد استخدموا معهم أنواع من السياسات ومختلف الوجوه فلم يفلحوا في تهدئة الأمور وبسط السلطة، وكان الأمويون قد لعبوا دوراً فعالاً في تأجيج الفتن والاضطراب والفوضى في قرطبة حيث بقت عدة سنوات دون خلافة ولا سلطة تحضا برضا الجميع، وحدث أن بايع أهل قرطبة عدد من الزعماء الذين ينتمون إلى بني أمية ولكن سرعان ما يخلعونهم فيهربون أو يُقتلون.

وأخيراً جاء أحد زعماء أهل قرطبة وهو أبو الحزم بن جهور وكان أحد معاوني علي بن حمود ونادى في جميع أحياء قرطبة وارباضها بأن لا يبقى بها أحد من بني أمية ولا يأويهم أحد ونفيهم وجلائهم من المدينة، وبذلك قرر أهل قرطبة صغيرهم وكبيرهم التخلص من بني أمية وإبطال رسم خلافتهم وبذلك تنتهي الدعوة الأموية بصورة نهائية وينقطع ذكرها إلى الأبد في منابر الأندلس والمغرب الأقصى، وهذا ما ذكره الدكتور عبد الله عنان في كتابه الكبير (دولة الإسلام في الأندلس).

و رغم أن ابن جهور كان من بني أمية ولكنه استيقض ضميره وعقله ورأى أن الشر والفتن والفوضى والحروب كلها تأتي من الحزب الأموي وأتباعه وأن قرطبة لا يستقر لها سلام وأمان إلا بإجلاء هؤلاء من المدينة وضواحيها كلها.

وهذا يذكرنا بأيام الرسول ﷺ الأولى عندما حل في المدينة المنورة وكان اليهود يحوكون المؤامرة تلو الأخرى وأنهم أصحاب فتن وقلاقل فقرر إجلائهم من المدينة بل من الحجاز كله، لأن ذلك الإجراء هو الحل الوحيد لاستقرار الأمن والسلام. ولنعد إلى تتبع مصاير دولة بني حمود في جنوب الأندلس والنزاعات التي نشبت بين يحيى المعتلي وعمه القاسم والتي انتهت بمقتل القاسم واستيلاء علي على جميع أملاك القاسم من ثغور ومدن وحصون وانفرد برياسة البربر في الأندلس.

وكان يحيى يخشى على مملكته من مطامع القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد الذي استقل في أشبيلية بعدما كانت تابعة للدولة الحمودية، وكان عليها عمه القاسم وأولاده، وأخيراً اشتبك الاثنان في معركة كبيرة قرب قرمونة وانهزم جيش يحيى بن حمود وقُتل فيها وكان ذلك في محرم سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م.

ولما قُتل يحيى بن حمود سارع وزيراه أبو الفوز نجا الصقلبي وأبو جعفر أحمد بن موسى بن بقنة البربري إلى مبايعة أخوه إدريس بالخلافة وكان يوم ذاك والياً على سبتة، وهكذا تم مبايعة إدريس بالخلافة في ملقا، وقد اتخذت هذه المدينة عاصمة وقاعدة للدولة الحمودية بدلاً من قرطبة التي كانت تضطرم فيها الفوضى والفتن.

واعترفت بخلافته ثغور رندة والجزيرة الخضراء وغيرها وكان من حلفاءه والمعترفين ببيعته الفتى زهير العامري صاحب المرية، وحبوس بن ماكسن زعيم صنهاجة وصاحب غرناطة وقد سارا في قواتهما لمعاونة إدريس على محاربة ابن عباد وانظم إليهما البرزالي صاحب قرمونة، كما عين إدريس ابن أخيه حسناً حاكماً لسبتة وأعمالها، وبذلك تم أعادة المناطق الجنوبية والغربية من الأندلس إلى حكم بني حمود ونفوذهم، ومن ضمنها أشبيلية وحصونها بعد مقتل أميرها إسماعيل بن عباد.

وفي سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م توفى الخليفة الحمودي إدريس اثر مرض ألمّ به فبويع ابنه يحيى بالخلافة في ملقا وتلقب بالقاسم بأمر الله، ولكن أرغم بعد ذلك عن التخلي عن الخلافة إلى حسن بن يحيى المعتلي (ابن أخ إدريس) في سنة ٤٣١هـ، وكان حسن أميراً حازماً قوي النفس فنظم الإدارة واستكثر من الجند وجبا الأموال ولُقب بالمستنصر، وعهد بتدبير الأمور إلى الوزير أبي جعفر بن بقنة وعهد إلى نجا بحكم الثغور الغربية.

وهكذا عادت الأمور إلى الهدوء والسكينة وعم الأمان في المناطق البربرية والأندلسية وجميع الثغور الغربية، ثم قُتل الوزير بتدبير من الخليفة حسن بن يحيى المعتلي ثم قُتل يحيى القاسم بأمر الله، بعد ذلك هلك الخليفة حسن بالسم من تدبير زوجته التي كانت أختاً ليحيى القاسم وكان ذلك في جمادي الأول سنة ٤٣٤هـ/ ديسمبر ١٠٤٢م. وكانت هذه النزاعات العائلية قد أنهكت دولة بني حمود وشتت أملاكهم وفقدت الثقة بهم مما ساعد على استقلال بعض الولاة.

ثم بويع بالخلافة إدريس بن يحيى الحمودي الملقب بالعالي وذلك في جمادي الثاني ٤٣٤هـ وأطاعته البربر في غرناطة وقرمونة وجيان وغيرها، وكان العالي اميراً رقيق الخلال جواداً كثير الصلاة أديباً ينظم الشعر، مع ذلك كان ضعيف الرأي متهاوناً في شؤون الحكم فسرى التفكك إلى السلطة.

وفي سنة ٤٣٨هـ ثار عليه ابن عمه محمد بن إدريس بن علي بن حمود وتلقب بالمهدي وتوطد أمره في ملقا ولكن بعض النواحي لم تستجب له ولم تبايعه واستمر في الحكم ست سنوات ثم دُس إليه السم من قبل خصومه أواخر سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٣م.

فبويع من بعده ولد أخيه وهو إدريس بن يحيى بن إدريس بن علي بن حمود وتلقب بالسامي، وأقام حيناً في ملقا ثم أصابته فيما يظهر لوثة فغادر ملقا وهام على وجهه في صفة تاجر ثم قُتل في سبتة من قبل حاكمها سواجات البرغواطي.

وكان إدريس بن يحيى العالي قد لجأ على أثر خلعه إلى سبتة فأقام بها في كنف سواجات وأقام كذلك في رندة في كنف حاكمها أبي نور بن أبي قرة، فلما هلك السامي سار إدريس العالي إلى ملقا واستقبله أهلها بحماس ودُعي له بالخلافة مرة ثانية واستمر في الحكم حتى وفاته سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م، بعد أن عهد بالخلافة إلى ابنه محمد الملقب بالمستعلي وأقرت بيعته المرية ورندة ولكن معظم الزعماء البربر نكلوا عن طاعته وفي مقدمتهم باديس الصنهاجي صاحب غرناطة.

وفي سنة ٤٤٩هـ سار باديس الصنهاجي في قواته إلى ملقا واستولى عليها وضمها إلى إمارته، وغادرها المستعلي وسار إلى المرية ثم عبر منها إلى البحر مليلة فقبله أهلها حاكماً عليهم واستمر بها حتى توفي سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م، وبعد استيلاء باديس حاكم غرناطة على ملقا عاصمة بني حمود انهارت دولة بني حمود وانتهى سلطانها بالأندلس بعد أن حكموا معظم بلاد الأندلس وثغور المغرب الشمالية. وكانت دولة بني حمود دولة علوية شيعية حكمها أبناء الادارسة وهي أول دولة علوية شيعية تحكم في الأندلس وكانت أقوى دولة وأوسع نفوذاً بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وانهيارها تماماً بعد موت محمد بن أبي عامر الملقب بالحاجب المنصور سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م.

وقد حكمت دولة بني حمود حوالي نصف قرن من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤٥٦هـ، حيث شملت ثغور قرطبة ـ شري ـ أشبيلية ـ جيان ـ المرية ـ قرمونة ـ غرناطة ـ مرورو ـ اركش ـ ملقا ـ الجزيرة الخضراء ـ سبتة ـ مليلة وطنجة وغيرها.

وكانت دولة بني حمود قد اعتمدت على قبائل البربر في سلطانها وحكمها وكانت

من أبرز هذه القبائل الشيعية هي قبيلة صنهاجة وزعيمها زاوي بن زيري، حيث كانت القوة الضاربة لكل الخارجين والمتمردين على خلافة بني حمود العلوية.

وكانت هناك محاولة أخيرة من قبل زعماء البربر لبيعة بني محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء، لكن يبدوا أنها جاءت متأخرة وأن قوة بني حمود قد انتهت وضعفت والقدر قد حكم عليها بالانهيار، وبعد سقوط الدولة الحمودية بدأت الأندلس مرحلة أخرى من حياتها تسمى مرحلة حكم الطوائف، حيث بدأت تتفكك الولايات وتنفصل واستقل فيها الولاة وأخذ كل واحد يحكم إمارة مستقلة، كما انتشرت الحروب والنزاعات بينهم وكان من ضمن هذه الإمارات المستقلة، إمارات بربرية شيعية منها إمارة بني مناد في غرناطة وإمارة بني يفرن في رندة، وإمارة بني خزرون في اركش وإمارة بني دمّر في مورون وغيرها، وسنأتي على الحديث عن هذه الإمارات البربرية لاحقاً.

الفكر والأدب الشيعي في ظل الدولة الحمودية

كان علي بن حمود أول خلفاء دولة بني حمود كثيراً ما يتكلم البربرية رغم أصله العربي، وقد ذكر المؤرخ ابن حيان القرطبي سيرة علي بن حمود فقال: (وكان يجلس بنفسه لمظالم الناس وهو مفتوح الباب، مرفوع الحجاب للوارد والصادر يقيم الحدود مباشرةً بنفسه، لا يحاشي أحدا من اكابر قومه، فانتشر اهل قرطبة في الارض ذات الطول والعرض، وسلكت السبل ورخا السعر)

وهكذا كانت بداية الدولة الحمودية العلوية، بداية عدل وانصاف للمظلومين، فاحبوه اهل قرطبة وسائر انحاء الأندلس واطاعوا خلفائهم.

ويذكر بان الحموديين كانوا شيعة معتدلين، فلم تكن قوة تشيعهم الفكرية والفلسفية والفقهية كما هو في مصر ايام الدولة الفاطمية او العراق وايران ايام الدولة البويهية.

وكان من المنتظر ان ينتشر ويقوى التشيع في كل انحاء الأندلس، وذلك لان الحسنيين من ابناء ادريس استطاعوا من تكوين لهم دولة قوية مستقلة لها كيانها

السياسي والعسكري والفكري، ثانيا ان المجتمع الأندلسي اصبح ممزق ومنحل بعد سقوط الدولة اموية، لهذا كانت الارضية خصبة ومهيئة، ثالثا وجود الدولة الفاطمية التي عرضت عليهم العون والمساعدة واقامة الروابط السياسية والعسكرية، وكذلك نشر الدعوة الفاطمية في الأندلس. ولكن يبدو ان الخلفاء الحموديين قد اعرضوا عن عروض الفاطميين وفضلوا الحكم بمفردهم.

ويذكر الدكتور محمود علي مكي في مقالة له نشرها في مجلة المعهد المصري سنة ١٩٦٥، بان تشيع الحموديين كان معتدلا باهتا لا روح فيه ولاقوة، وانما كان تقليدا للمشرق، كما ذكر بان الحموديين لم يغيروا من النظم الادارية والقضائية التي كانت موجودة في ايام بني امية في الأندلس. كما انه قد تخلل حكم الدولة الحمودية كثير من الفتن والحروب خاصة بين ابناء العائلة الحاكمة من بني حمود، ولهذا لم يدع ذلك مجالا للاستقرار والامن حتى يتسنى لهم نشر افكارهم ومعتقداتهم، كما فعلت الدولة الفاطمية في شمال افريقيا ومصر، او كما فعله محمد بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية، حيث كانت حركته في البداية حركة اصلاحية كبرى يدعوا فيها الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والاعتقاد بالامامة والا مام المنتظر ومحبة أهل البيت عليهم السلام.

وكان الحموديون في بداية امرهم قد اختاروا خطا آخر للوصول الى الحكم، وهو التسلل الى صفوف الدولة، حيث بدأوا في تسلق المناصب الحساسة والعليا في قيادة الجيش خاصة في زمن المنصور بن ابي عامر واولاده الذين جاءوا من بعده. وكانوا يحملون في عروقهم احياء دولة الادارسة التي اسقطها العباسيون منذ زمن بعيد. وفعلا تحقق لهم حلمهم ووصلوا الى ذلك في زمن سليمان المستعين، حيث مسكوا كل مناصب الدولة الحساسة، ثم جائت الفرصة المناسبة حتى اسقطوا بني امية واعلنوا خلافتهم.

ورغم كل ذلك فان الدولة الحمودية قد خلقت جوا شيعيا في كل انحاء الأندلس انتشرت فيه الافكار والفقة الشيعي كما ظهر فيه عدد من العلماء والادباء والمفكرين ومنهم الشاعر الكبير عباد بن ماء السماء الذي كان علما من اعلام الادب الشيعي في الأندلس ايام بني حمود. كما انتقلت كتب الشيعة من المشرق الى الأندلس، فاثرت على التفكير الديني والسياسي و الادبي والفلسفي، خاصة في الايام الاخيرة من عمر

الدولة الاموية، والتي كانت بدايتها عندما تولى الخلافة ابن المنصور عبد الرحمن المسمى شنجول سنة ٤٠١ هجرية / ١٠١٠ م

وايضا انتشرت في نفس الوقت الالقاب والانساب الشيعية واصبح الانتماء الى المذهب الشيعي ضاهرة حضارية يفتخر بها اهل الأندلس. وقد ذكرنا سابقا بان المنصور وابناءه عبد الملك وعبد الرحمن ـ شنجول ـ

قد استعانوا بفرق من قبيلة صنهاجة الشيعية. وكان الصنهاجيون بلغ نفوذهم ان لايطبق عليهم الفقة السني، كما ان عبد الرحمن بن المنصور فرض على اهل دولته ان يتزينو بزي الصنهاجيين.

وقد رافق قيام الدولة الحمودية ازدهار الادب العربي وحرية التفكير، فقد اصبح الخلفاء الحموديون يهتمون بتشجيع الشعراء لما عرفوا من اهمية كبيرة للشعر في التوجيه السياسي، فاخذوا يجمعون حولهم اكبر عدد من الشعراء والادباء. وعلى الرغم من ان علي بن حمود اول خليفة علوي كان يفهم العربية بصعوبة الا انه كان يصغي الى الشعراء ويثيب عليهم، وكان ممن جاءوا من بعده من الخلفاء اكثر تشجيعا للادب واغداقا للشعر.

وكان اخلص الشعراء الذين اتصلوا بالحموديين هو الشاعر الأندلسي عباد بن ماء السماء، وكان شيعيا يتفاخر بذلك، واصبح فيما بعد الناطق الرسمي للدولة الحمودية، كما ذكر المؤرخون بانه هو المبدع والمطور لشعر الموشحات في الأندلس، سبق بذلك ابن باجة السرقسطي بمائة عام تقريبا والذي يعتبره البعض من ابرز شعراء الموشحات في الأندلس.

وقد صدر كتاب باللغة الاسبانية عن حياة وشعر عدد من الشعراء الأندلسيين للكاتب هنري بيريز، (W. Hoerenerbach. سنة ١٩٨٠) وجاء في الكتاب فصلا عن حياة وشعر عباد بن ماء السماء، غير انني لم اعثر على هذا الكتاب في المكتبات العامة والسوق، وقد نقلت الخبر عن احد المصادر العربية الحديثة.

ولكن مع الاسف لم نجد في كتب التاريخ والادب عرضا جيدا لهذا الشاعر، رغم انه من مفاخر الشعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري وهو عصر انتعاش الفكر

والادب الأندلسي. وقد توفى عباد بن ماء السماء سنة ٤٢١ هجرية / ١٠٣٠م.

وله قصيدة يقول فيها :

فها انذا يابن النبوة نافث — من القول اربا غير ما ينفث الصل
وعندي صريح من ولائك معرق — تشيعه محض وبيعته بتل
ووالي ابي قيس اباك على العلى — فخيم في قلب ابن هند له غل

كما له قصيدة اخرى في مدح علي بن حمود :

ابوكم علي كان في المشرق بدء ما — ورثتم وذا بالغرب ايضا سميه
فصلوا عليه اجمعون وسلموا — له الامر اذ ولاه فيكم وليه

وايضا من شعراء الشيعة الذين رافقوا علي ابن حمود هو الشاعر ابن الحناط القرطبي ومن شعره :

راحت تذكر بالنسيم الراحا — وطفاء تكسر للجنوح جناحا
اخفى مسالكها الظلام فاوقدت — من برقها كي تهتدي مصباحا

كما قدم عدد كبير من الشعراء على بلاط بني حمود في قرطبة ومنهم شعراء العهد القديم مثل الشاعر المتألق ابن دراج القسطلي وكان شاعر المنصور بن ابي عامر المفضل، وقد مال الى الشيعة ومدحهم. ويقول في علي بن حمود :

لعلك ياشمس عند الاصيل — شجيت لشجو الغريب الذليل
فكوني شفيعي لابن الشفيع — وكوني رسولي لابن الرسول

وكان علي يثب ويهب العطايا للشعراء ويظهر ذلك في آثار النسب العربي والكرم الهاشمي. كما يذكر بعض المؤرخون بان ابن دراج القسطلي كان افضل الشعراء الذين اتصلو بالحموديين ومدحهم واحتج بصدق امامتهم وانه مال الى التشيع او تشيع. فيقول :

فانتم هدات حياة موت — وانتم أئمة فعل وقيل
وانتم خلائق دنيا ودين — بحكم الكتاب وحكم العقول

واختص ايضا بالحموديين ابو عبد الله محمد بن سليمان القرطبي المعروف بابن

الحناط الكفيف والذي ذكرناه سابقا. ولكن مع الاسف لم نستطع الحصول على معلومات كافية عن حياته وشعره خلال تصفحنا للمصادر العربية التي لدينا. وكان قد نشأ في قرطبة ودرس العلوم خاصة علم المنطق وكان شاعرا لامعا اظهر تشيعه ومدح الحموديين.

كما مدح الحموديين من الشعراء ابو عبد الله السراج وادريس بن يمان اليابس وغانم بن الوليد وغيرهم.

وذكر المقري في كتابه ـ نفح الطيب ـ (وقد كان بنو حمود من ولد ادريس الذين توثبوا على الخلافة في اثناء المروانية بالأندلس يتعاظمون، ويأخذون انفسهم بما يأخذه خلفاء بني العباس. وكانو اذا حضرهم منشد لمدح او من يحتاج الى كلام بين ايديهم يتكلم من وراء حجاب، والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة).

ولما حضر ابن مقانة الاشبوني امام حاجب ادريس بن يحيى الحمودي الذي خطب له بالخلافة في ملقا وانشده قصيدته المشهورة النونية.

وكأن الشمس لما اشرقت   فأنثنت عنها عيون الناظرين
وجه ادريس بن يحيى بن علي   بن حمود امير المؤمنين

وبلغ فيه الى قوله :

انظرونا نقتبس من نوركم   انه من نور رب العلمين

رفع الخليفة الستر بنفسه وقال : انظر كيف شئت وانبسط مع الشاعر واحسن اليه. وكان ابن مقانة من اهم شعراء الحموديين الشيعة، ويعتقد انه ولد في لشبونة عاصمة البرتغال الحالية.

يذكر بعض المؤرخين بان التشيع في المشرق كان من اهم العوامل التي غذت الادب العربي وامدته بالوان جديدة. وكما كان الحزب الشيعي اول حزب اسلامي ديني سياسي، فكذلك كان الادب الشيعي اول ادب سياسي، حاول شعرائهم ان يحتجوا فيه على خصومهم من الامويين والعباسيين مدافعين بشدة عن نظرية الامامة. ويقول الدكتور محمود علي مكي : كان الادب الشيعي يمتاز بصدق العاطفة وقوة

الشعور الديني، ولهذا كانت مدائح شعرائهم تختلف عن مدائح غيرهم لما فيها من الحرارة والاخلاص، وهو ما يفتقر اليه شعراء المديح عموما في الشعر العربي.

ومثال على ذلك دعبل الخزاعي الذي يعتبر من كبار شعراء العرب واحد المجددين ومن حملة الادب والتاريخ والعارفين بايام العرب والرواية والشعر. وكان يقول : لي خمسون سنة احمل خشبتي على ظهري ابحث عن من يصلبني عليها فلم اجد من يفعل ذلك. واشتهر بقصيدته التائية التي قالها في مكانة اهل البيت ﷺ وانشدها في حضرة الامام الرضا ﷺ . وعندما مات دفنت معه هذه القصيدة بطلبا منه.

في حب آل المصفى ووصيه — شغل عن اللذات و القينات
ان النشيد بحب آ ل محمد — ازكى وانفع لي من القينات
مدارس آيات خلت من تلاوة — ومهبط وحي مقفر العرصات

وقد عاصر دعبل عدد من الخلفاء العباسيين، ثم قتلوه وكان عمره حوالي مائة سنة. اما الفرزدق فهو احد اعمدة الشعر العربي، وشعره قاموس اللغة العربية حيث يرجع اليه لحد هذا اليوم اصحاب اللغة والنحو لفهم معاني ولهجات لغة العرب قبل الاسلام وبعده. اشتهر بقصيدته التي قالها في الامام زين العابدين -ع- والتي لازالت حية ينشدها الشعراء والخطباء على المنابر.

هذا الذي تعرف البطحاء وطئته — والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم — هذا التقي الطاهر العلم
اذا راته قريش قال قائلها — الى مكارم هذا ينتهي الكرم
ما قال لا الا في تشهده — ولولا التشهد كانت لائه نعم

وكنت بغداد في في فترة حكم الشيعة في الأندلس من اهم المراكز الشيعية بعدما استولى عليها بنو بويه سنة ٣٣٤ هجرية / ٩٤٠ م. وكانت الممالك الأندلسية ماهي الا صورة للمدنية الشرقية العظيمة. وكان عصر بني بويه من ازهر عصور الادب الشيعي، وفي ضلهم نشأ كثير من المفكرين والعلماء واهل الشعر والادب، وقد ذكرنا بعضهم في مواضع اخرى من هذا الكتاب.

دولة بني مناد الصنهاجية

بني مناد يرجعون في الاصل الى قبيلة صنهاجة البربرية الشهيرة وهي بطن من بطون البرانس الكبرى، وكان منزلهم باواسط المغرب. فلما غلب الفاطميون على شمال افريقيا وقامت دولتهم بها، انحاز بني مناد اليهم وحاربوا الى جانبهم ضد الخارجين عليهم، وكان زعيمهم زيري بن مناد من اعظم زعماء البربر، وقد حارب قبائل البربر لمخالفتهم الفاطميون. وكان زيري قد قتل في احد المعارك فخلفه ابنه بلكين. ولما سار المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٦٢ هجرية الى مصر بعدما افتتحها القائد جوهر، اختار بلكين لولاية افريقيا ثم خلفه ولده المنصور ثم خلف المنصور ولده باديس.

وفي خلال ذلك كانت المعارك تضطرم في ربوع المغرب باستمرار بين امراء صنهاجة الشيعية الموالين للدولة الفاطمية وبين خصومهم من امراء زناتة وغيرها من القبائل الموالية لبني امية. وكانت صنهاجة تحمل دائما وعلى يد بني مناد علم الدعوة الفاطمية، بينما تحمل زناتة وحلفائها علم الخلافة الاموية في الأندلس.

وحدث ايام ولاية باديس بن المنصور على افريقيا فتن بينه وبين ابناء قومه آل مناد مما اضطر بعضهم الى مغادرة افريقيا والتوجة الى الأندلس.

وقد كتب شيخهم زاوي بن زيري الى المنصور بن ابي عامر يستأذنه الجواز بقومه الى الأندلس. فعبر زاوي وابناء اخيه ـ ماكس و حباسة و حبوس ـ في اهلهم واموالهم الى الأندلس سنة ٣٩١ هجرية، فاكرمهم المنصور وانزلهم منزلا حسنا، واتخذهم له بطانة وعونا. ثم قوت شوكتهم في اواخر ايام المصور واولاده عبد الملك وعبد الرحمن، ورجحت كفتهم في الجيش وكانوا له عضدا. ويذكر بعض المحللين بان المنصور بن ابي عامر كان قد مال اليالشيعة البربر واعتمد عليهم في الحكم وفرض زيهم على رجال دولته ولم يفرض عليهم المذهب السني، ولهذا ليس بعيدا انه تشيع واخفى ذلك.

وبعد سقوط الدولة العامرية وبداية عهد الفتنة اخذ البربر بقسط بارز في المعركة المضطرمة التي تدور حول عرش الخلافة. والتف البربر حول سليمان بن الحكم الاموي ضد خصمه محمد بن هشام الملقب بالمهدي الذي لقى منه البربر الاضطهاد وسوء المعاملة فحاصروا قرطبة وفتكوا باهلها. وانتهى الامر بجلوس مرشحهم سليمان على عرش الخلافة وتلقب بالمستعين وذلك في سنة ٤٠٣ هجرية/ ١٠١٣م.

وسيطر البربر غلى مقاليد الدولة وقوت شوكتهم، فاراد سليمان اضعافهم و تفريقهم في الكور والثغور وابعدهم عن قرطبة. وبالتالي اصبحت ستت قبائل بربرية تسيطر على ولايات الأندلس الجنوبية والوسطى وشمال المغرب. وقد كرنا ذلك سابقا.

وكانت قبيلة صنهاجة وزعمائها بني زيري قد اخذوا ولاية البيرة (غرناطة). ولما نزلوا فيها رأوا انها لاتصلح بموقعها هذا للدفاع وبالتالي اتفق رأيهم على ان يبنوا في البسيط الواقع على مقربة من وادي شنشل المنحدر من جبل شنير والذي يسمى اليوم جبل الثلج sierra nivada مدينة جديدة حصينة ينزلوا بها وهكذا قامت مدينة غرناطة. وكان ظهورها نذيرا بخراب البيرة فعفت منازلها بسرعة، لهذا فانه يعود الفضل في تأسيس مدينة غرناطة الى بني مناد الشيعية.

واستقر بنو مناد في غرناطة في الوقت الذي استولى بني حمود على قرطبة وبويع علي بن حمود بالخلافة وقتل سليمان المستعين. وبعد فترة خالف خيران صاحب المرية الخليفة علي بن حمود وايده في ذلك والي سرقسطة منذر بن يحيى وسارا بجيشهما الى غرناطة لمقاتلة جيش صنهاجة القوي، فخرج اليهما زاوي بن زيري بقواته فهزمهم وفر الباقون. بعد هذه الحادثة قرر زاوي بن زيري العودة الى افريقيا بعدما راى ان الفتن في الأندلس ليس لها حل قريب وانها سوف تبقى مشتعلة في حروبها الى امد بعيد، فخرج منها سنة ٤١٠ هجرية / ١٠٢٠ م. وهناك استقبله اخيه المعز بن باديس صاحب افريقيا وبنو عمه اجمل استقبال، ونزل في القيروان اجمل منزل.

وبعد رحيل زاوي بن زيري خلفه على غرناطة حبوس بن ماكسن ابن اخ زيري اميرا عليها بعدما كان واليا على حصن اشتر. وبدأت ولاية حبوس لغرناطة سنة

٤١١ هجرية فسار سيرة حسنة وظبط النظام والامن وقسم الاعمال بين اقاربه وبني عمه، وكان يشركهم في الراي ويجري في حكمه طريقة الشورى.

وامتد نفوذه على قبرة ونواحيها ومدينة جيان، وعقد علاقات طيبة مع جيرانه من رؤساء البربر وفي مقدمتهم بيعته لبني حمود، حيث كان يعتبر اليد القوية الضاربة على الخارجين عليهم خاصة في زمن ادريس ضد القاضي بن عباد صاحب اشبيلية.

ويشيد المؤرخ ابن حيان بجلال حبوس، وقد عاصر ه فيقول: (وانه كان على قسوته يصغي للادب وينتمي في العرب، وكان وقورا فظا مهيبا نزر الكلام قليل الضحك كثير الفكر شديد الغضب، شجاع حسن الفروسية جبار متكبرا داهية واسع الحيلة كامل الرجولة له في كل ذلك اخبار مأثورة). ثم خلفه في الحكم ابنه باديس الذي قدر له ان يكون اقوى ملوك البربر في جنوب الأندلس، واعظمهم شأنا في تلك الفترة. غير ان زهير العامري صاحب المرية قد طمع في ولاية غرناطة فتوجه اليها بجيش كبير، وكان باديس قد حشد قواته ورتبها ترتيبا محكما، وهدم جيشه قنطرة في مؤخرة القوات المهاجمة.

ثم بدأت بين الجيشين معركة حامية انتهت بانتصار باديس وهزيمة الصقالبة وقتل زهير ومعظم قواده، ثم تعقب الفارين وقتلهم واسر بعظهم ، وهكذا انسحق جيش زهير باكمله. وكانت هذه المعركة قد علت كعب باديس البربري وهابه اهل الأندلس.

ولما ضعف الحموديون شعر باديس انه احق برآسة البربر في الأندلس، لهذا سار في قواته الى ملقا واستولى عليها وضمها الى امارته سنة ٤٤٩ / ١٠٥٧ م، وغادرها الوالي محمد المستعلي الحمودي وعبر البحر الى المغرب، وانتهت بذلك مملكة بنو حمود في ملقا. و اما الجزيرة الخضراء فقد حاصرها ابن عباد صاحب اشبيلية، فاضطر صاحبها القاسم بن حمود ان يغادرها بالامان مع اهله وصحبه، وذلك سنة ٤٤٦ هجرية / ١٠٥٥ م

وكان باديس قد حكم ثلاثين عاما، وكانت مملكته تمتد يو مئذ من بسطة شرقا الى رندة غربا ومن جيان شمالا الى البحر جنوبا. وقد شاخ باديس واخلد الى الراحة،

وكان له وزير يهودي يدعى اسماعيل بن نغرالة، يصفه ابن حيان بانه كان بارعا في الآداب العربية والعبرية والعلوم الاخرى. ولما توفى هذا الوزير اليهودي ندب باديس ولده يوسف للاطلاع بمنصبه، وكان يوسف غض الايهاب وافر الذكاء والبراعة فقام بالاعمال خير قيام حتى غدا كأبيه اول رجل في الدولة بعد اميرها.

وكان بلقين ا بن باديس ينظر الى يوسف بعين السخط والحسد، وفي ذات يوم دعاه يوسف لمجلس شراب ودس السم في كأسه، وبعد يومين توفى بلقين. واستطاع يوسف ان يقنع الامير باديس باتهام بعض فتيان ولده وجواريه وقرابته فقتل منهم باديس عددا كبيرا وفر الباقون. وكان مصرع بلقين سنة ٤٥٦ هجرية / ١٠٦٤ م ولكن يوسف استمر في سيطرته على الدولة وبسط على غرناطة واعمالها نوع من الطغيان اليهودي المرهق وقرب اليهود من اصحابه واستوظفهم في مراكز الدولة.

وكل ذلك وباديس غافلا وغارقا في لهو ومنكبا على لذاته. وكان اهل غرناطة يضطرمون سخطا على الطاغية يوسف ويترقبون الفرصة لاسقاطة واقربائه الذين سيطروا على امور الدولة. وكان الفقيه الورع الزاهد ابو اسحاق الالبيري (ا يبيري) يقود هذه الحملة ضد اليهود والتخلص من طغيانهم، وقد نظم قصيدة في ذلك ذاعت بين الناس، وكانت بمثابة الشرارة الاولى التي اضرمت النار. وكان اسحاق الالبيري فقيها ومحدثا واديبا وشاعرا، وهو ايضا من ابرز فقهاء غرناطة، وكان ملازما للامير باديس، ويعتقد انه كان من فقهاء الشيعة المعتبرين.

ولكن يوسف كان يحسده فنقم عليه وابعده من غرناطة، فسكن الفقية البيرة القريبة منها وانقطع الى العبادة والزهد. ولكنه لبث يحرض صنهاجة على اليهود في شعره ووعظه حتى وقع الانفجار وتم الفتك بهم ، بعدما تم اكتشاف موآمرة يخطط لها يوسف لقتل الامير باديس. فهاجم اهل غرناطة بيوت اليهود ومحلاتهم واستولوا على اموالهم ونهبوا دار يوسف وكانت غاصة بالاموال والذخائر والنفائس، وقتل يوسف وصلبوه على باب غرناطة.

واستطال حكم باديس بضعة اعوام اخرى وتوفى في العشرين من شوال سنة ٤٦٥ هجرية / ١٠٧٣ م، بعد حكم دام ٣٧ سنة. والالبيري هو ابو اسحاق ابراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبي، توفى سنة ٤٥٩ هجرية، بعد ان شهد آثار تحريضه في

بطش صنهاجة باليهود، وقصيدته المشهورة هي :

الا قل لصنهاجة اجمعين ... بدور الزمان واسد العرين
لقد زل سيدكم زلة ... تقر بها عين الشامتين
تخير كاتبه كافرا ... ولو شاء لكان من المؤمنين
فعز اليهود به وانتخوا ... وتاهو وكانوا من الاذلين
ونالوا مناهم وحازوا المدى ... وقد جاز ذلك وما يشعرون

ومنها :

اباديس انت أمرء حاذق ... تصيب بضنك مرمى اليقين
فكيف تحب فراخ الزنا ... وقد بغضوك الى العالمين
وكيف استنمت الى فاسق ... وقارنته وهو بئس القرين

وكان باديس بن حبوس من اعظم ملوك البربر في عصر الطوائف واقواهم. وكانت دولته من اكبر الدول في الأندلس بعد الدولة الحمودية اذ كانت رقعتها تمتد من بسطة شرقا حتى استجة ورندة غربا ومن بياسة وجيان شمالا حتى البحر جنوبا. وباديس هو الذي مصر مدينة غرناطة وغدت منذ عهده من اهم قواعد الأندلس الجنوبية، وقد أنشأ قصبة غرناطة فوق انقاض قلعتها القديمة و سميت باسمها القديم ـ القلعة الحمراء ـ وهو الاسم الذي خلد على العصور، وغدا فيما بعد علما على حمراء غرناطة، واقام داخل القصبة قصره ومسجده الذي دفن فيه، وانشأ سورا ضخما حول الربوة التي تقع عليها القصبة.

كما انشأ قصبة ملق ا المنيعة والتي لازالت آثارها قائمة لحد هذا اليوم، وانشأ جيشا مرابطا من قومه صنهاجة وغيرهم وبذل المال الوفير ووطد الدولة ونظم مراتبها وعمالاتها. ويقول عنه ابن حيان المؤرخ (انه ارفع ملوك البرابرة في هذا الوقت شئنا واشدهم سلطانا واكثرهم رجالا واوسعهم اعمال ا، املى النصر العزيز على الاعداء املاء واختيار...)

ويقول عنه ابن الخطيب : (كان ريسا يبسا جبارا طاغية شجاعا داهية حازما جلدا شديد الامر سديد الراي بعيد الهمة..)

ومن ذلك يظهر لنا بان غرناطة باسوارها وقصورها و قلعتها هي من تأسيس ملوك

البربر الشيعة من بني مناد الصنهاجية، والتي لازالت اليوم من اعظم المعالم الحضارية للمسلمين الشيعة في الأندلس، ولكن مع الاسف كثير من المؤرخين يتجنبون ذكر الشيعة وفضلهم على الحضارة الأندلسية. كما ان حنش بن عبد الله الصنعاني هو احد القواد الذين دخلوا الأندلس، وكان من اصحاب الامام علي ﷺ وقد تبوء هذا القائد مناصب مهمة في الأندلس، ويعود له الفضل في تأسيس جامع قرطبة وجامع البيرة (غرناطة) وجامع سرقسطة.

ولكن هناك من ينصف في ذكر هذا الدور الريادي للشيعة في بناء الادب والثقافة والفن، مثل الدكتور المصري محمود علي مكي حيث يقول :

(....... وكانت مدائح شعرائهم تختلف عن مدائح غيرهم لما فيها من الحرارة والاخلاص وهو ما يفتقر اليه شعراء المديح عموما في الشعر العربي.)

ولما توفي باديس جاء من بعده حفيده عبد الله بن بلقين وكان صبيا حدثا، لهذا فقد تولى تدبير الدولة ورعاية الصبي الوزير سماجة وهواحد شيوخ صنهاجة وكان هذا الوزير رجلا حازما قوي العزم شديد السطوة مرهوب الجانب. فضبط الدولة واستأثر بالسلطة واحسن السيرة. ويذكر انه لما سقطت طليطلة بيد النصارى اتفق عبد اللة بن بلقين مع امراء الطوائف لاستدعاء امير المؤمنين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين للحد من اعتداءات النصارى على المسلمين، وفعلا دخلت جيوش المرابطين الأندلس وحدثت معركة الزلاقة التي انتصر بها المسلمون على النصارى. ثم سيطر المرابطون على الأندلس واصبحت تابعة لدولتهم، وبذلك انتهت دول الطوائف.

وكان عبد الله قد نقله المرابطون الى المغرب مع عدد آخر من امراء الطوائف، وبقى هناك منفيا في مدينة اغمات، وكتب كتابه بعنوان (كتاب التبيان). وقد اعتمد عليه المؤرخون في كشف الحوادث والامور السياسية والاجتماعية التي عاشها هذا الامير الصنهاجي في عصر الطوائف.

الامارات البربرية الشيعية والموالية في جنوب الأندلس

إلى جانب دولة بني مناد أو بني زيري في غرناطة تقوم ثمة إمارات بربرية أخرى في هذه المنطقة الجنوبية من الأندلس، وقد قامت هذه الممالك إلى جانب شقيقتها الكبرى دولة بني مناد الصنهاجية وكانت مملكة غرناطة تتولى الحماية والدفاع عنها كلما داهمها خطر من الخارجين عليها وكانت هي نفسها تلف حول غرناطة كلما دعت إلى ذلك ضرورة سياسية أو عسكرية.

ومن الواضح أن اجتماع هذه الممالك البربرية الصغيرة في هذه المنطقة يرجع إلى عوامل جغرافية وعسكرية ذلك أن المثلث الاسباني الجنوبي هو أقرب شبه الجزيرة إلى المغرب بحيث تغدوا مغادرة الأندلس وقت الخطر أو عند الظروف أمراً ميسوراً وكذلك تستطيع الإمداد من أقوامها أن تعبر البحر من المغرب إلى الأندلس بسرعة وسهولة.

وكانت الإمارات التي تقوم قرب غرناطة أربعة إمارات هي:

١ـ إمارة بني يفرن في رندة، وتقع بين أشبيلية والجزيرة الخضراء.

٢ـ إمارة بني خزرون في شذونه واركش، وتقع جنوب شرق أشبيلية.

٣ـ إمارة بني دمّر في مورور، وتقع قرب وادي لكه غرب أشبيلية.

٤ـ إمارة بني برزال في قرمونه، غرب غرناطة.

ـ إمارة بني يفرن في رندة ـ

وبنو يفرن من قبيلة بربرية من بطون زناتة وكانوا في المغرب وقد آمنت بالدعوة الفاطمية ودافعت عنها وتشيعت وحدثت معارك شديدة بينها وبين عامل المنصور على المغرب، ولما عبر بنو يفرن إلى الأندلس أيام المنصور أصبحوا جزءًا من الجيش والدولة أسوة بإخوانهم من بني زيري الصنهاجية ولما انتهت الدولة العامرية واضطربت نار الفتنة، استقر بنو يفرن في ولاية تاكرونا واتخذوا من قلعتها رندة مركزا

لرياستهم، وكان زعيمهم يومئذٍ هو أبو نور هلال بن أبي قرة بن دوناس اليفرني.

ويُذكر أن ولايته بدأت بعد وفاة إدريس بن علي بن حمود سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م، وكانت تشمل أراضي ولاية رية ما بين وادي لكه والبحر، وكانت قاعدتها رندة من أمنع القلاع الأندلسية الجنوبية.

وبعد وفاة أبو نور خلفه ولده أبو نصر فتوح بن أبي نور وكان عادلاً حسن السيرة، ولكن المعتضد بن عباد صاحب أشبيلية كان يترصد له فدبر له مكيدة وقتله ثم استولى على رندة وأعمالها وكان ذلك في سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م.

ـ إمارة بني خزرون في اركش ـ

وبنو خزرون من أبناء قبيلة برنيان أو أرنيان من زناته، وكان زعيمهم أبو عبد الله محمد بن خزرون بن عبدون الخزري كغيره من زعماء البربر الوافدين على الأندلس أيام الدولة العامرية، وقد ظهر أيام الفتنة واستقر في مدينة قلشانه بكورة شذونة على مقربة من أركش والتي تقع جنوب شرق أشبيلية سنة ٤٠٢هـ.

ثم تغلب على أركش المنيعة وأقام فيها حكومة مستقلة تشمل الأنحاء المجاورة لها، وتلقب بعماد الدولة، وكان زعيماً جسوراً مقداماً سفاكاً للدماء فهابه الناس، واستمر في الحكم حتى سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩، وكانت هذه الأمارة في زمن بن حمود تابعة لها ورافعة علم الدولة الحسنية الأدريسية وكانت إلى جانبها في حروبها ضد الخارجين على الخلافة الحمودية.

وكان أحد زعماء بني خزرون وهو سعيد بن خزرون قد ولاة الفاطميون ولاية طبنة سنة ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م، ثم من بعده عليها ابنه فلفل بن سعيد ولما توفي أبو عبد الله محمد بن خزرون خلفه ابنه عبدون بن خزرون وبقى في حكم الولاية خمسة وعشرون سنة ثم قتل، ثم خلفه أخوه محمد بن خزرون وتلقب بالقائم وأخذ يحصن بلاده ويتأهب لمقاومة ابن عباد صاحب أشبيلية الذي لم ينفك من التآمر على هذه الإمارة والإغارة عليها وتخريبها حتى استطاع من قتل الأمير محمد بن خزرون وضمها إلى مملكة أشبيلية سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م.

- إمارة بني دمّر في مورور -

وتقع هذه الإمارة البربرية في المنطقة الجنوبية من الأندلس قرب وادي لكه حتى البحر غرب أشبيلية وهي رقعة صغيرة تحيط بمدينة مورور أو مورون، وكانوا بني دمّر من بربر تونس ومن بطون زناته وهم خوارج أباضية وفد جدهم أبو تزيري إلى الأندلس أيام المنصور وخدم كسائر زملاؤه الزعماء البربر في الجيش، وانحاز أيام الفتنة إلى تلك المنطقة واستقر بها وبسط عليها سلطانه.

ولما توفي سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م، خلفه ابنه نوح بن أبي تزيري واستمر في حكمها ثلاثين سنة ثم توفي سنة ٤٣٣هـ-١٠١٤م، فخلفه ولده محمد بن نوح، وكان فتى غراً وجندياً جاهلاً خلواً من الفضائل بيد أنه كان مقداماً وجسوراً واستطاع بجرأته وصرامته أن يحافظ على سلطانه وعلى أراضيه، ثم قُتل، وجاء من بعده ابنه مناد بن محمد بن نوح وسار على نهج أبيه في الصرامة والشدة والحزم... ولكن ابن عباد يكرر الاغارة على اراضيه ويحرق بلاده وزروعه، ولما شعر مناد أنه عاجز عن مواجهة ابن عباد وإجرامه قرر الاستسلام والتخلي عن مورور وما يتبعها من حصون وكان ذلك سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م.

وانتهت بذلك إمارة بني دمّر الصغيرة، وكانت هذه الإمارة قد بايعت بنو حمود بالخلافة وأقرت لهم الولاية وكانت لهم العون والنصير في حروبهم مع بني أمية.

- إمارة بني برزال في قرمونة -

وتقع هذه الإمارة بين قرطبة وأشبيلية وقاعدتها قرمونة التي تقع شمال شرق أشبيلية، وكانت تشمل قرمونة مدينة استجه الواقعة شرقاً ومدينة المدور الواقعة غرب قرطبة على نهر الوادي الكبير، وقد حكمها أبو عبد الله محمد البرزالي وكانوا بني برزال ينتمون إلى بطن من بطون زناته من بني يفرن وكانوا يقطنون بالمغرب ثم عبرت بنو برزال الزناتيين إلى الأندلس أيام المنصور ولما سقطت الدولة العامرية استقر أبو عبد الله محمد البرزالي في قرمونه وكان نداً لبني حمود وبني مناد، وقد حكم

قرمونة ثلاثين عاما ثم توفى سنة٤٣٤ هجرية / ١٠٤٢ م. وجاء من بعده ابنه عزيز الملقب بالمستظهر ولكنه لم يستطع مقاومة ابن عباد في مضايقته لأخذ قرمونه، حتى اضطر إلى التخلي عنها سنة ٤٥٩هـ، وبذلك انتهت دولة بني برزال.

وفي فترة معينة خاصة في بداية الخلافة الحمودية كانوا بني برزال قد بايعوا واعترفوا بالخلافة الحمودية وساعدهم في حروبهم ضد الخارجين عليهم، ولكنهم بعد ذلك أظهروا الخلاف وتحصنوا في قلاعهم.

الحضارة والفكر الشيعي في الأندلس

عندما سقطت الدولة الأموية في الأندلس بعد وفاة المنصور محمد بن أبي عامر سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م، أصبحت هناك حرية للفكر والتعبير والانتشار لمختلف ألوان الثقافة المشرقية بعدما كانت الخلافة الأموية تفرض رقابة شديدة على كل فكر يخالف منهجها في الحكم كما كانت تختار كل ما هو يناسب و يضمن سلامة سلطتها الروحية والدنوية وترفض كل ما هو مخالف لها، وفي هذه الفترة ظهر حكم الطوائف وانقسمت الأندلس إلى إمارات صغيرة مستقلة وأصبحت صورة للثقافة والمدنية المشرقية العظيمة، وكانت بغداد في هذا الوقت من أهم مراكز التشيع في العالم الإسلامي بعدما استولى عليها بنو أبويه سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٠م، وكان عصر بني بويه في أواخر القرن الرابع الهجري من أزهر عصور الأدب الشيعي.

وقد انتقلت كثير من كتب علماء الشيعة ومفكريهم إلى الأندلس و كان أول من أدخلها إلى الأندلس أبو الحكم عمر عبد الرحمن الكرماني القرطبي، كما انتقلت إلى الأندلس كتب أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني وكتب الشريف الرضي مهيار الديلمي وغيرهم من مفكري وشعراء الشيعة الذين أثروا تأثيراً عميقاً على الأدب الأندلسي، كما انتقلت رسائل اخوان الصفا. وقد استفاد الأندلسيون من معظم هؤلاء عن طريق المجموعة الأدبية الضخمة التي ألفها أبو منصور الثعالبي النيسابوري والتي تسمى (يتيمة الدهر) حيث كان لها صدى واسع وأثر عظيم على

حركة الثقافة في الأندلس، وكان أهل الأندلس وخاصة مفكريهم وأدبائهم يقلدون وينقلون عن المشارقة في كل شيء حتى في الأكل والملبس، وكان زرياب قد نقل موضة أزياء بغداد خاصة من بلاط هارون الرشيد إلى قصور بني أمية في الأندلس وعلم الأندلسيين أيضاً طريقة الأكل والطبخ الشرقي، وكان وراء هذه الحركة النشطة للنقل والتقليد عدة عوامل منها أولاً أن كثير من مفكري الأندلس وعلمائهم ذهبوا الى المشرق للدراسة وطلب العلم وعندما عادوا نقلوا معهم مختلف الكتب المشرقية وأخذوا يتحدثون بها ويدرسون تلاميذهم، كما أن عدد من أمراء بني أمية في الأندلس بعثوا رجالاً إلى المشرق لشراء الكتب ونقلها إلى قرطبة كما حدث في زمن الحكم بن عبد الرحمن الناصر الذي كوّن أضخم مكتبة في العالم الإسلامي.

والعامل الثاني لهذا النقل هو الحنين الدائم لعرب الأندلس إلى المشرق والأماكن المقدسة في المدينة ومكة وفلسطين والعراق وإلى بغداد مركز العلم والثقافة والحضارة الإسلامية لهذا فقد دفعهم هذا الحنين إلى السير على خطى المشرقيين ليس فقط في الكتابة والتأليف وإنما في كل شيء.

ويذكر بأن الصاحب بن عباد الوزير الكبير لدولة بني بويه في بغداد لما وصل إليه كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه واطلع عليه قال: (هذه بضاعتنا ردت إلينا ضننت أن هذا الكتاب يشتمل على أخبار بلادهم وإنما هو يشتمل على أخبار بلادنا، لا حاجة لنا فيه)، ومن العلماء المشرقيين الآخرين الذين انتشرت كتبهم ومؤلفاتهم في الأندلس ونُقل عنهم هم : ابن المقفع والجاحظ وابن الكلبي والمبرّد والأصمعي والمدائني والشيباني وغيرهم..

وكان بديع الزمان الهمداني (١٠٠٧) أول من ابتكر نوع من النثر المنمق والذي يسمى (المقامة) معتمداً على نحو خاص اللفظية للسمع، والمقامة هي عبارة عن وسيلة للتعبير عن موضوعات أدبية واجتماعية وتاريخية ولغوية وعادة ما تكون نقدية نوعا ما، ويظهر في المقامة عادة أن الشخصيات يسودها الاحتيال والصعلكة، كما يظهر ضعف في الحبكة الفنية في المقامة، في المقابل هو الاهتمال والمبالغة في اللغة أكثر من الحدث.

وهذا اللون من المقامة أثر تأثيراً كبيراً في رواية الصعلكة الاسبانية وكان اليهود

في الأندلس قد نقلوا وقلدوا هذا النوع من المقامات وظهر واضحاً في الرواية العالمية (دون كيخوته) للمؤلف ثربانتس، وقد نقلت مقامات الحريري في القرن الثاني عشر إلى الأندلس وترجمت إلى اللغة الاسبانية، قبل ظهور رواية دون كيخوته بعدة قرون، ويُذكر أنه ظهر في هذه الرواية أكثر من ٣٥ شخصية إسلامية و٢٢٠كلمة من أصل عربي بالإضافة إلى الأمثال الشعبية العربية، كما أن شخصية دون كيخوته تشبه إلى حدٍ ما شخصية ابو زيد السروجي في مقامات الحريري.

وكان الحريري قد جاء بمقاماته بعد مقامات الهمداني وطورها ووصل فيها إلى مستوى راقٍ من الفصاحة والفن في اللغة وقد انتشرت في العالم الإسلامي والعربي مع شروح لغوية تبسطها وتساعد القارئ العربي على فهمها، ويُذكر بأن هذه المقامات وصلت في حياة المؤلف إلى الأندلس سنة ١١٠٨، على يد أحد الأندلسيين وهو الحاج يوسف القضاعي، فقد اطلع عليها عندما كان يدرس في بغداد، وعندما عاد إلى الأندلس أخذ يشرح هذه المقامات إلى تلاميذه.

كما يذكر بعض المؤرخين بأن الذي قام بنشر مقامات الحريري في الأندلس وتتبعها بدقة هو ابو عباس أحمد الشريشي سنة ١٢٢٢م، وقد نقل الثقافة الشيعية إلى الأندلس عدد كبير من العلماء والمفكرين الأندلسيين الذين رحلوا إلى بغداد ودرسوا فيها وسمعوا من علمائهم وأدبائهم كما قام عدد كبير من تلاميذ هؤلاء الرحالة الأندلسيين بنشر وتبني الثقافة الشيعية في الأندلس.

ومنهم : محمد بن عيسى القرطبي الذي رحل على بغداد سنة ١٧٩هـ ودرس فيها وأنه أول من نقل شيئاً من الثقافة الشيعية إلى الأندلس وعاد ومعه بعض كتب وكيع الجراح وهو من محدثي الشيعة، وقد عُرض على هذا العالم القضاء في الأندلس فرفض، كما نقل فقه وعلوم وآداب الشيعة إلى الأندلس عباس بن ناصح الثقفي (٢٠١هـ) ومحمد بن حيون الحجازي (٣٠٥هـ) وابن مسرة القرطبي (٢٢٩هـ) وغيرهم، وسنقوم بدراسة متواضعة وعرض بسيط لحياة هؤلاء الرحالة الأندلسيين وتلاميذهم الذين درسوا في بغداد أو شمال أفريقيا وعادوا وهم من ابرز وأشهر علماء الأندلس.

من رواد الفكر الشيعي في الأندلس

ـ ابن مسرة القرطبي

وهو أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة الجبلي، ولد في قرطبة سنة ٢٢٩هـ/ ٨٨٢م، درس في القيروان أيام الدولة الفاطمية واعتنق المذهب الشيعي وأصبح من أبرز علماء الأندلس وعندما عاد إلى الأندلس أخذ يدرس تلاميذه العلوم والفقه الشيعي فتأثروا به وساروا على خطه وأثروا على طائفة كبيرة من المجتمع الأندلسي.

وكان ابن مسرة فيلسوفاً وعالماً برع في العلوم الدينية وكان متصوفاً اتخذ من الجبل سكناً له ولذلك سمي بالجبلي. وقد رحل الى المشرق ودرس هناك آراء الفقهاء على مختلف مذاهبهم وفرقهم، وتأثر بآراء المعتزلة ودور العقل في الحكم بعدما عطلت دوره بعض الفرق الاسلامية الاخرى، كما تأثر باصحاب الكلام والجدل مما يؤشر لنا شدة نبوغة وجذاقته.

ثم عاد إلى الأندلس في زمن عبد الرحمن الناصر فأخذت الطلبة تتهافت عليه من كل صوب وكان كلامه ساحراً ومنطقه خلاباً غزيراً في علمه وجمال بيانه، وبذلك استطاع أن يشكل مدرسة في آراءه وفكره وعلومه الدينية وأصبح له أتباع ومؤيدين، وقد وضعه بعض المفكرين إماماً في العلم والزهد والورع وأصبحت آراءه وتعاليمه شائعة بين الناس، وحتى بعد وفاته شكل تلاميذه مدرسة بارزة في الأندلس.

ولكن بعض الناس اتهموا ابن مسرة بإظهار البدع والخروج عن الخط العام للجماعة فأخذ بعض فقهاء السلطة إلى العمل على القضاء على آراءه وطمسها وقمع كل من يسير على هذا الخط من تلاميذه، واليوم يسمى هؤلاء الفقهاء (وعاظ السلاطين) الذين تضيق عليهم الأرض بما رحبت عندما يروا هناك نوابغ في الأمة تعمل على الإصلاح والتجديد في الفكر والفلسفة والأدب.

وينقل لنا ابن حيان نصوصاً في كتابه المقتبس، من أن فقهاء السُنّة ذهبوا إلى عبد

الرحمن الناصر وطلبوا منه القضاء على ابن مسرة وآراءه وأفكاره ولكن عبد الرحمن كان يوم ذاك مشغولاً في حروبه مع معارضيه ومحاولة إخماد الثورات التي اندلعت في أنحاء مختلفة من الأندلس، وبعد عشرين سنة من وفاة ابن مسرة صدر أمر من الخليفة الناصر بالقضاء على آراء ابن مسرة وقمع تلاميذه ومؤيديه وحرق كتبه وكان ذلك سنة ٣٤٠هـ.

وليست هذه الحادثة الأولى ولا الأخيرة للتصدي لأهل العلم والفكر ووصفهم بالزندقة والخروج عن السُنّة، فقد حدث لابن حزم حيث مُنع من التدريس في مسجد قرطبة وحُرقت كتبه كما أحرقت كتب الفيلسوف ابن رشد، ويعيد التاريخ نفسه ونرى هذه الحوادث تتكرر اليوم في عصرنا الحاضر فقد كانت آراء وفكر السيد الشهيد الصدر الأول بمثابة تجديد لفكر الأمة وانتشالها من الركود والجمود إلى آفاق الحركة والنشاط والتجديد، وكان بعض الناس ومنهم بعض الفقهاء لا يروق لهم هذا التجديد والنبوغ من شاب لا زال في مطلع العشرينات وهو يقود حركة فكرية عارمة انشدّت إليها قلوب وعقول أهل العلم والفكر والثقافة فسعوا للإطاحة بفكر الشهيد وتصفيته جسدياً والحكم على أتباعه ومؤيديه بالموت، وذهبوا إلى أبعد من ذلك فكل من يملك كتابا للشهيد الصدر يحكم عليه بالموت ويطارد أفراد عائلته.

ولكن هذا النظام الجائر والفاسد لم يدم طويلاً فشاءت الأقدار ودارت السنين والأيام وتحقق قول الإمام علي ﷺ (بشّر القاتل بالقتل) فيسقط النظام الصدامي ويعود أتباع الشهيد الصدر ويمسكوا الدكتاتور ونظامه وينفذوا بهم حكم الله، ويعود الشهيد الصدر يمثل الوجه الحضاري للأمة الإسلامية.

وهنا ننقل نصّاً للمؤرخ الدكتور عبد الله عنان يتساءل فيه عن صحة ما أورد ابن حيان في كتابه المقتبس حول اتهام ابن مسرة بالزندقة من قبل السلطات الحاكمة يومذاك:

(فهل كانت حقاً ما يصفها ابن حيان وكما تصورها الوثيقة الخلافية التي ينقلها إلينا، جمعية مارقة ملحدة، تهدد العقائد والنظام؟ أم هل كانت حركة تفكير فلسفي حر، لم يتسع لها أفق التفكير المعاصر، وكانت كمعظم الحركات المماثلة، ضحية نقمة المتزمتين والرجعيين من الفقهاء والحكام، يدافعون بسحقها عن نفوذهم وسلطانهم المطلق).

ويُذكر بأن الأندلس لم تعرف الفلسفة إلا في القرن العاشر الميلادي وعلى يد ابن مسرة حيث يعتبره البعض رائد الفلسفة الإسلامية في الأندلس حيث شكّل مدرسة فكرية حديثة على غرار مدرسة أفلاطون الحديثة، لقد ترك ابن مسرة كثير من الكتب القيمة التي دوّن فيها آراءه وأفكاره ولكن لم يصل إلينا إلا كتابين هما (كتاب التبصير وكتاب الحروف) وقد انتشرت هذه الكتب في الأندلس والمشرق، غير أن بعض العلماء خالفوا آراءه وأنكروها ممن ساروا على نهج السلف دون تجديد أو تغيير، مما حدى بالسلطات إلى حرق كتبه كما أسلفنا. وذكر المؤرخون بأن الأندلس لم تعرف مفكراً مجدداً كمحمد ابن مسرة، وكان ابن مسرة يخشى من فقهاء السلطة الذين تحجرت عقولهم وأفكارهم، وكان يهوى آراء المعتزلة في إطلاق حرية العقل في التفكير، وبالتالي فقد أثر تأثيراً كبيراً على كثير من مفكري الأندلس مثل بن حزم القرطبي وصاعد الطليطلي وغيرهم.

وقد جاء اليوم المستشرق الاسباني المعروف مغيل بلاثيوس فعمل على دراسة واسعة ودقيقة حول آراء وفلسفة ابن مسرة وطبعت ونشرت باللغة الاسبانية. وتوفي ابن مسرة في قرطبة سنة ٣١٩هـ/ ٩٣١م، بعدما أحدث رجة في صفوف أهل الفلسفة والعلم.

ـ المنذر بن سعيد البلوطي

وهو بربري من قبيلة نفزة وقد شغل منصب قاضي الجماعة في قرطبة أيام حكم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم وكان شيعياً معتدلاً، ويذكر أن تشيعه جاء نتيجة كون قبيلته اعتنقت المذهب الشيعي وقد ألف عدد كبير من الكتب التي يظهر فيها آراء المذهب الشيعي وفكر وعلوم أهل البيت ولكنه إذا جلس للقضاء لا يحكم إلا بمذهب مالك، وتولى أيضاً منصب القضاء في ماردة Merida وما والاها من المدن ثم تولى نفس المنصب في الثغور ومنطقة الجوف وكانت هذه المناطق تنتشر فيها القبائل البربرية حيث كانت مناطق خصبة لانتشار الفكر الشيعي.

ولد المنذر بن سعيد البلوطي في سنة ٢٦٥هـ وتوفي سنة ٣٥٥هـ وكان بارعاً في علوم القرآن والسُنّة وله مؤلفات كثيرة في ذلك كما اشتهر بفصاحة اللسان وجزالة شعره.

وكانت مكانته وشهرته جاءت بعدما احتفل الناصر بقدوم رسول ملك الروم صاحب القسطنطينية حيث بدأ الشعراء والخطباء يلقون كلماتهم وشعرهم تمجيداً للخليفة وحكمه ثم تقدم خطيباً أبي علي البغدادي والذي يعتبر واحداً من أبرز علماء الكلام واللغة ولكنه تعثر في خطبته وارتبك وسكت فلما رأى ذلك المنذرين سعيد قام فجأةً وأنقذ الموقف حيث خطب خطبة ارتجالية غير مهيئا لها فذكر محاسب الخليفة وشيد بحكمه وألقى قصيدة في نفس السياق والمعنى مما أثار إعجاب الخليفة والحاضرين وأبهر عقولهم لما سمعوا من فصاحة كلامه وبلاغته.

وكانت هذه الحادثة سبباً في تقريب الخليفة إليه وشدة احترامه له فأصبح من رجاله الدولة المشهورين ثم ولاه القضاء في قرطبة.

وذكر المقري في كتابه نفح الطيب كلاماً كثيراً عن المنذر بن سعيد حيث قال: «قاضي الجماعة في قرطبة، وكان لا يخاف في الله لومة لائم. وكان على متانته وجزالته حسن الخلق كثير الدعابة فربما ساء ظن من لا يعرفه، حتى إذا رام أن يصيب من دينه شعرة ثار ثورة الأسد الضاري..».

«وذكر ابن أصبع الهمداني عن منذر أنه خطب يوماً وأراد التواضع فكان من فصول خطبته أن قال: حتى متى أعظ ولا أتعظ وأزجر ولا أزدجر، أدل الطريق على المستدلين وأبقى مقيماً مع الحائرين، كلا إن هذا لهو البلاء المبين..»

وكان المنذر متفنناً في ضروب العلوم.. وكان خطيباً بليغاً عالماً بالجدل حاذقاً فيه شديد العارضة حاضر الجواب... وكان مع وقاره التام فيه دعابة مستملحة وله نوادر مستحسنة. وكانت فترة ولايته للقضاء ستة عشر سنة في زمن الناصر ثم ابنه الحكم. ومن مؤلفاته هي كتاب «أحكام القرآن، والناسخ والمنسوخ، وغيرها».

كما ذكر المقري: بأن المنذر (آية حركة وسكون وبركة لم تكن معدة ولا تكون آية سفاهة في تحلم وجهامة في ورع في طي تبسم، إذا جد وجد وإذا هذل نذل وفي كلتا الحالتين لم ينزل للورع من مرقب ولا أكتسب إثماً ولا أحتقب، ولي قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن.. وناهيك من أعدل أظهر، ومن فضل أشهر، ومن جور قبض ومن حق رفع ومن باطل خفض، وكان مهيباً صليباً صارماً غير جبان ولا

عاجز ولا مراقب لأحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم..)

ومن شعره في الزهد

كم تصابي وقد علاك المشيب	وتعامى عمداً وأنت اللبيب
كيف تلهو وقد أتاك نذير	أن سيأتي الحمام منك قريب
يا سفيها قد حان منه رحيل	بعد ذلك الرحيل يوم عصيب
أن للموت سكرة فارتقبها	لا يداوي إذا أتتك طبيب
كم توانى حتى تصير رهيناً	ثم تأتيك دعوة فتجيب

ـ ابن هاني الأندلسي ٣٢٦هـ/ ٩٣٦م

اختلف النقاد في تحديد تاريخ ولادته فمنهم من يذكر أنه ولد سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٧م ومنهم من يقول أنه ولد سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٢م في أشبيلية على الأرجح.

أما نسبة فيذكر أنه يعود إلى يزيد بن حاتم بن أبي صغرة الأزدي بينما يرون آخرون أنه من ولد روح بن حاتم الازدي.

وأن والده سعدون نشأ في إحدى قرى المهدية في تونس، وعرف بتشيعه ثم انتقل إلى الأندلس لنشر الدعوة الفاطمية الشيعية. وهكذا نشأ ابن هاني على مذهب والده وهو التشيع والدعوة إلى مذهب الدولة الفاطمية في الأندلس.

وكان أمير أشبيلية يومذاك قد تأثر بدعوة ابن هاني ومال إليه، ولكن أهل أشبيلية كانوا يعتنقون المذهب المالكي، فنقموا عليه وحاربوه مما اضطره إلى مغادرة الأندلس إلى المغرب. وكان المغرب يومذاك أرض خصبة للتشيع، حيث ظهرت فيها دولة الأدارسة العلوية ثم جاءت الآن الدعوة الفاطمية وانتشرت في بلاد المغرب. وعندما حط ابن هاني الشاعر في أرض المغرب علا شأنه وبرز نجمه، ثم اتصل بقائد جيش الدولة الفاطمية جوهر الصقلي ثم المعز الخليفة الفاطمي وأخيراً أصبح شاعر البلاط الفاطمي.

وكان ابن هاني الأندلسي من فطاحل الشعر العربي حتى لقب بمتنبي المغرب. وكان قد تبوء عرش الشعر العربي في المغرب لفخامة ديباجة ودقة وصفة وقوة تراكيبه

وجمال معانيه.

وكان تشيعه ودعوته للفاطميين سبباً في وضع حد لحياته من قبل الخط الأموي.

ويذكر بأن الشاعر وجد مقتولاً في برقة من بلاد طرابلس عندما كان يتهيأ مصاحبة الخليفة المعز إلى فتح مصر. كما يذكر بعض المؤرخين مثل ابن الأثير وابن خلدون وأبو الفداء. بأن الشاعر وجد مخنوقاً على يد أعدائه الأمويين. وبعد سماع الخليفة المعز بمقتل ابن هاني حزن عليه كثيراً وخاصة أنه كان يفاخر به شعراء أهل المشرق.

وكان ابن هاني من أبرز شعراء الأندلس، وعندما حل في شمال أفريقيا أصبح نجماً لامعاً. وقد أجمع العلماء على مكانته الأدبية العالية وأنه شعلة متوقدة ونبوغاً فريداً أنشد في كل فنون الشعر. ومن شعره الجميل هذه بعض الأبيات المختارة:

ألؤلؤ دمع هـذا الغيث أم نقط ... مـا كان أحسنه لـو كان يلتقـط

بين السحاب وبين الريح ملحمة ... فقاقـع وظبـي في الجـو تخـترط

غمائـم في نواحـي الجـّو عاكفـة ... جعـد تحدر منهـا وابـل سـبط

كأن تهتانهـا في كل ناحيـة ... مـد مـن البحـر يعلـو ثـم ينهبط

كما وصف أسطول الفاطميين في القاهرة بالأبيات التالية:

أما والجواري المنشآت التي سرت ... لقد ظاهرتها عـدة وعديد

قباب كما تزجى القباب على ألمها ... ولكن من ضمت عليه أسود

وما راع ملك الروم إلا أطلاعها ... تـنـشر أعــلام لهـا وبنود

ويستخدم نفس الأسلوب أيضاً في هجاء الأمويين بقرطبة:

ومـا عرفـت كـر الجيـاد أميـة ... ولا حملـت بـز القنا وهو شـابك

ولا جـردوا نصـلاً تخاف شباته ... ولكـن فـولاذا غـداً وهـو آنـك

ولم تـدم في حـروب دروع أميـة ... ولكنهـم فيهـا الأمـاء العـوارك

ورغم أن ابن هاني قتل في ربيع عمره ونبوغه إلا أنه احتل مكانه كبيرة في الأندلس وأنه من شعرائها الخالدين.

ـ ابن شهيد القرطبي ٩٩٢ـ ١٠٣٥م

يعد ابن شهيد من عباقرة الشعر العربي في الأندلس وقد صرح هو نفسه بذلك وأنها جاءت عن موهبة وسليقة طبيعية وليس عن اكتساب معارف.

وقد اتصل ابن شهيد بالحموديين العلويين في ملقا فمدحهم وأشاد بهم فأكرموه وأعزوه ومال إليهم وتشيع وطلبوا منه أن يكون شاعراً للبلاط، ولكنه بالأخير اعتزل السياسة.

وكان ابن شهيد يعتني بكل أنواع الحداثة لأنها هي التي تعكس نمط حياته في ذلك الوقت وكانت معظم أشعاره تميل الى الغزل، وكثير ما يستخدم ابن شهيد الرسالة كوسيلة أدبية، وقد حفظ لنا المؤرخ ابن بسام بعض فقرات قيمه لهذا الجانب الغني. وكان أكثر رسائله أهمية هي (التوابع والزوابع) والتي نقلها لنا أيضاً ابن بسام على نحو مجزأ، وكان موضوعها الرئيسي هو النقد الأدبي.

وتقوم نظرية ابن شهيد على أن الشاعر أو الأديب يكون كذلك بالفطرة والموهبة وليس بالاكتساب، كما تشير النظرية المغرقة في القدم في الثقافة العربية، حين يصبح تعلم البلاغة والمعارف اللغوية يمثل زاداً علمياً لا غناً عنه.

وابن شيهد نفسه يفخر بأنه لم يقرأ إلا القليل جداً من الكتب وإن ما يكتبه هو ناتج عن موهبة وقريحة.

ويطرح ابن شهيد كثير من الآراء والأفكار الغريبة الشاذة والتي لا يقبلها العقل مثلاً علاقته بالجن وإن أشعاره توحى إليه من الجن وأن معارفه جاءت من هذا العالم الغير مرئي.

ونقل لنا المؤرخون عدد من القصص الطريفة منها: ذكر ابن شهيد بأن تابعه من الجن أخذه إلى أرض ملهمي الشعراء من الجن اللذين يتسم كل منهم بنفس الملامح التي يميز بها شاعره الذي يمثله أو ينطق بوحيه. فلقى هناك صور أو رموز الشعر العربي العظام وهم: طرفه وأبو تمام والبحتري والمتنبي، ثم ينتقل أرض الكتّاب الناثرين حيث عبد الحميد والجاحظ وبديع الزمان. وهكذا يتحدث ابن شهيد عن

نظريته وخياله وإلهامه وتدخل الجن في ذلك الإلهام. وهذه النظريات ليس جديدة وإنما ظهرت في زمن الإغريق والرومان مثل آلهة الشعر والحب وغيرها.

وقد ابتكر ابن شهيد هذه الرحلة مع الجن بينما نرى معاصرة أبو العلاء المعري ابتكر رحلة أخرى إلى العالم الآخر في كتابه رسالة الغفران وقد تأثر بهما الأديب والشاعر دانتي في (الكوميديا الإلهية) والتي جاءت بعد عدة قرون من رسالة الغفران، ومن أشعار ابن شهيد:

تولى الحسام بظبي الخدور وفاز الردى الغزال الغرير
وكنت ومللتك لا عن قلى ولا عن فساد جرى في ضميري

ويقول ابن شهيد أنه توقف عن هذه الأبيات فظهر إليه فارس جني فقال له أكمل شعرك بالبيت الآتي:

لمثل ملال الفتى النعيم إذا دام فيه وحال السرور

ومن أشعاره الأخرى

سهر الحيا برياضها فأسألها والنور نائم
حتى أغتدت زهراتها كالغيد باللجج العوائم
ومن ثيبات لم تبل كشف الخدود ولا المعاصم
وصغار أبكار شكت خجلاً فعاذت بالكمائم
ورد كما خجلت خدو د العين من لحضات هائم
وشقيق نعمان شكت صفحاته من لطم لا طم
وغضون أشجار حكت رقص المآثم للمأثم
حييت بطوفان الحيا فتضاحكت والجو واجم

ويذكر بأن ابن شهيد كان مصاب بالشلل النصفي، وهو في الثانية والأربعين من عمره لهذا كانت حياته يسودها الكآبة والحزن وانعكس ذلك على قصائده الأخيرة التي ألفها والتي تعد من أقوى الشعر الأندلسي منها قصيدته الموجهة إلى صديقه ابن حزم الأندلسي.

ولما رأيت العيش ولى برأسه	وأيقنت أن الموت لا شك لا حقي
تمنيت أني ساكن في غيابه	بأعلى مهب الريح في رأس شاهق
أدر سقيط الحب في فضل عيشه	وحيداً وحسى الماء ثنى المغالق
خليلي مـن ذاق المنية مرة	فقد ذقتها خمسين قولة صادق
فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لي	يدا في ملماتي وعند مضايقي
عليك سـلام الله إني مفارق	وحسبك زاد من حبيب مفارق
وإني أرجـوا الله فيما تقدمت	ذنـوبي مما درى من حقائقي

ـ ابن عبد ربة ـ مليح الأندلس ـ

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه ولد سنة ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م، في قرطبة على الأرجح وكانت قرطبة يوم ذاك مقر خلفاء وأمراء بني أمية وعاصمة العلم والأدب والشعر والثراء والترف واللهو والغناء، وقد نشأ ابن عبد ربه في هذه الأجواء وكان في بداية حياته عندما كان شاباً يافعاً يميل إلى الغناء والطرب، ثم درس علوم عصره كعلوم اللغة العربية والتاريخ والشريعة وتفقه بالدين.

ويقول عنه المقري في كتابه نفح الطيب: (عالم ساد بالعلم ورأس..... وشُهر بالأندلس حتى سار إلى المشرق ذكره..) وذكر السيوطي نقلاً عن ابن الفرضي: أن ابن عبد ربه عالم الأندلس بالأخبار والأشعار وأديبها وشاعرها،(وأما في الأدب فهو حجته وبه غمرت الافهام لجته مع صيانة وورع وديانة وورد، وسماه غيره بالعلامة الأديب صاحب كتاب العقد الفريد).

وذكُر أنه تشيع وأظهر حبه للإمام علي بن أبي طالب وأولاده عليهم السلام كما انه لا يخفي بغضه وسخطه على خصومه وعلى أولئك الذين آذوا أبناءه فيما بعد، وقد أورد في العقد الفريد أحاديث نبوية كثيرة تبين فضل آل البيت وتبين أيضاً تهافت من يبغضهم أو من يتعرض لهم بأي نوع من الأذى، ومن ذلك ذكره الحديث النبوي (ويحك عمار تقتلك الفئة الباغية) والمعروف أن عمار بن ياسر كان من أصحاب الامام علي عليه السلام وقاتل معه في معركة صفين ضد جيش معاوية وقد قتله أصحاب معاوية بن أبي سفيان.

وقد أورد ابن عبد ربه هذا الحديث للدلالة على أن الفئة الباغية هم معاوية وجيشه وبني أمية الذين قتلوا عمار، وبذلك فهي إدانة واضحة ورفض لخط بني أمية وإعلاء الحق الذي يدور مع الإمام علي عليه السلام حيث دار.

وتراه في مواضع كثيرة يسهب في بيان فضائل الإمام علي عليه السلام استناداً على الأحاديث النبوية ويدافع عنه وعن مواقفه تجاه بني أمية والخوارج، وإذا ذكر الحسن والحسين يثني عليهما كما إذا ذكرت مأساة كربلاء تألم وحزن كثيراً وسب يزيد بن معاوية وأعوانه فيقول: (لا رحمه الله).

كما ذم ابن عبد ربه أبو سفيان وذكر عيوبه ومنها، عندما جلس مع عثمان بن عفان وكان ضريراً فقال: تلاقفوها يا بني أمية كالكرة فوالذي يعتقد به أبو سفيان لا جنة ولا نار.. وكان يقصد بذلك الخلافة وحصرها في عائلة بني أمية.

وكان ابن عبد ربه في بداية نضوجه لم يتعرض إلى معاوية بالذم، وذكر له أقوال في الحكم والسياسة ولكنه بعدما تعمق وتفقه أكثر بالدين انقلب وأصبح من أنصار الإمام علي وآل بيته عليهم السلام. أما في الشعر والأدب فقد ذكره المؤرخون وأشادوا به ومنهم الثعالبي حيث ذكر ابن عبد ربه بأنه (أحد محاسن الأندلس علماً وفضلاً وأدباً في نهاية الجزال والحلاوة وعليه رونق البلاغة والطلاوة..)، وقال السيوطي: (عالم الأندلس بالأخبار والأشعار وأديبها وشاعرها كتب الناس تصنيفه وشعره..)، كما ذكره ابن خلجان ومدحه: (وله ديوان شعر جيد) وذكر بعض أشعاره.

ويروي لنا المقري قصة طريفة حيث يقول: (إن أبا وليد بن عيال لما انصرف من الحج اجتمع مع الطيب في مسجد عمر بن العاص في مصر ففاوضه قليلاً ثم قال له: أنشدني لمليح الأندلس يعني ابن عبد ربه، فأنشده:

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقا	ورشـاً بتقطيع القلوب رفيقا
ما أن رأيت ولا سمعت بمثله	دراً يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه	أبصرت وجهك في سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقةٍ	ما بال قلبك لا يكون رقيقا

فلما أكمل انشاءها استعادها منه وقال : يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبواً..)

ويذكر بأن ابن عبد ربه بلغ في الغزل ما لم يبلغه غيره في الأندلس وانتشرت قصائده بين العامة والخاصة، ووقعت في نفوس الناس موقعاً حسناً، ولكن التربية الدينية التي تلقاها ابن عبد ربه حدت من أقواله وتصرفاته وكذلك كان الحال مع كثير من شعراء الأندلس فلم يبيحوا أو يصرحوا عن مغامراتهم بطريقة إباحية أو بها في صدورهم من ميل إلى الغزل أو الحب أو المعاناة والآلام.

ولكنهم استخدموا طرائق مؤدبة وغير مباشرة أو كما يقول المقري في وصفه للمنذر بن سعيد البلوطي (آية سفاهة في تحلم وجهامة في ورع) وكما نشاهد ذلك في كتاب طوق الحمامة لابن حزم القرطبي عالم الأندلس الكبير وصاحب المذهب الظاهري حيث يتحدث في هذا الكتاب عن قصص الحب والغرام لأهل الأندلس.

وكان ابن عبد ربه يملك خيالاً واسعاً في الشعر والصياغة الفنية، مما ساعده أن يكون شاعراً مجددا ومبتكرا من حيث الرقة والطلاوة وصدق العواطف، ومن شعره وهو يصف فتاة تبكي:

وكأنما غاص الأسى بجفونها ... حتى اتاك بلؤلؤٍ منثورا

وفي معنى الفراق والوداع يقول:

يا سقيم الجفون من غير سقمٍ ... بين عينيك مصرع العشاق

إن يوم الفراق أفضع يومٍ ... ليتني مت قبل يوم الفراق

وفي آخر أيامه تاب ابن عبد ربه وندم على كل ما فعل وقال في صباه وأنشأ قصائد نقيضة لمقطوعات شعرية قالها في شبابه في الغزل وغيره وسُمّيت هذه القصائد (الممحصات) وفي أقواله في معنى التوبة:

ياويلنا من موقف ما به ... أخوف من أن يعدل الحاكم

أبارز الله بعصيانه ... وليس لي من دونه راحم

يا رب غفرانك عن مذنبٍ ... أسرف إلا أنه نادم

وأصيب ابن عبد ربه بالفالج ثم توفي وعمره ٨٢سنة وكان ذلك في سنة ٣٢٨هـ، ودفن في مقبرة بني العباس.

ـ ابن الدراج القسطلي

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن الدراج القسطلي، ولد في محرم سنة ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م، في قرية قسطلة دراج من عمل جيان Jaen، وهو أحد شعراء الأندلس العظام ويطلق عليه أحياناً بمتنبي الغرب وهو لقب تنافس عليه مع الشاعر الكبير ابن هاني الأندلسي، وكما يقول ابن حيان: (سباق حلبة الشعراء الأندلسيين وخاتمة محسني أهله أجمعين..)، وكانت الأندلس أيام ابن دراج القسطلي قد وصلت إلى أوج عظمتها ورقيها في الأدب والسياسة والعلم والثراء الاجتماعي وبالتالي فقد كان شاعرنا ثمرة هذه الأجواء الحضارية الراقية الطيبة.

وكان ابن دراج قد عاش في زمن المنصور ابن أبي عامر وعمل في بلاطه ١٦ سنة ورافقه في الحرب والسلم وكان من أكثر الشعراء اهتماما في تسجيل الأحداث التاريخية التي عاشتها الأندلس أيام المنصور وبعد سقوط الدولة الأموية وظهور الفتنة.

وإلى جانب ذلك كان ابن دراج له براعة أدبية عالية وصورة جمالية راقية وقوة تأثير كبير جعلت منه أمير شعراء الأندلس واعتبر النقاد ديوان الشاعر ابن دراج وثيقة تاريخية مهمة تعرض بدقة أخبار المنصور وحروبه وانتصاراته على أعدائه خاصةً النصارى في شمال بلاد الأندلس وكان قد مدح المنصور في قصائد كثيرة:

إن تفخر الدنيا فأنت فخارها	أو تختر العليا فأنت خيارها
المجد ممنوع بسيفك عزه	والأرض معمور بملكك دارها
زهيت بذكرك أرضها وسماءها	وجرى بسعدك ليلها ونهارها

وعندما سقطت الدولة الأموية بعد وفاة المنصور ظهرت دولة بني حمود العلوية (أحفاد الأدارسة) فاتصل ابن دراج بهم ومدحهم بشعره واحتج بصدق إمامتهم ومال إلى التشيع او تشيع حسب بعض المؤرخين. وكان المنصور قد قرب البربر خاصة قبائل صنهاجة الشيعية واعتمد عليهم في الحكم وفرض زيهم على رجال الدولة، ولذلك فقد كانت هناك أرضية سابقة للتشيع عاشها ابن دراج في بلاط المنصور الذي يذكر بعض المححلين بانه مال الى التشيع.

ويقول في مدح بني حمود:

فانتم هـداة حياة وموت وأنـتـم أئـمـة فـعـل وقيل
وسادة من حل جنات عدن جميـع شبابها والكهـول
وأنـتـم خـلائـق دنـيـا ودين بحكم الكتاب وحكم العقول

وله قصيدة أخرى في مناقب آل البيت:

ووالـدكـم خـاتـم الأنبياء لكم منه مجـد حفي كفيل
تـلـذ بـحـمـلـكـم عاتقاة عـلى حمـل كـل عـبءٍ ثقيل
ورحـب على ضمكم صدره إذا ضاق صدر أب عن سليل
ويـطـرق الـوحـي وأنتم ضجيعاه بين يـدي جبرائيل

ويذكر أن هذه القصيدة تعتبر من أفضل وخير ما أنتجه الأدب الشيعي في ذلك الوقت وقد انتشرت بين العامة والخاصة واهتم بها رواة الشعر وأفردوها بالدراسة والحفظ.

ـ عباس بن ناصح الثقفي

يعتبر عباس بن ناصح الثقفي قطب الشعر الأندلسي في عصره، وهو بالإضافة إلى ذلك نراه متعدد الثقافات فكان بارعاً في علوم اللغة والهندسة والفلك، وقد ولاه الأمير الحكم قضاء الجزيرة مسقط رأسه ثم ولى ابنه من بعده عبد الوهاب بن عباس وكان مثل والده شاعراً نابهاً، ويذكر بأن الأمير عبد الرحمن الأوسط قد أرسله إلى العراق في التماس الكتب القديمة سنة ٢٠١هـ وقد صاحب بعض الدارسين في العراق والتقى بعدد من علمائهم ومفكريهم ودرس على أيديهم وتأثر بهم.

ثم رجع إلى الأندلس وهو شيعي وأخذ يدرس تلاميذه الفقه الشيعي، وكان الحكم يقدره ويضعه في منزلة خاصة بين الشعراء، ففي سنة ١٩٧هـ/ ٨١٢م، حدثت مجاعة في المناطق الشمالية وقحط شديد وعانى المسلمون من ذلك كثيراً ومات منهم خلق كثير، فبادر الحكم إلى إغاثتهم ومساعدة المنكوبين منهم، وقد مدحه الشاعر عباس

في بعض أبياته:

نكد الزمان فآمنت أيامه ... من أن يكون بعصره عسُر
طلع الزمان بأزمةٍ فجلبت له ... تلك الكريهة جوده الغمرُ

ـ بن حيون الحجاري

هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن حيون الحجازي، ولد في مدينة وادي الحجارة القريبة من مدريد (مجريط) ولهذا سمي بالحجاري، ولكن لم يذكر تاريخ ولادته بشكل مؤكد، وتوفي في قرطبة سنة ٣٠٥هـ، ومن هذا التاريخ نستطيع أن نخمن ولادته في الربع الأول من القرن الثاني الهجري.

ويعد ابن حيون الحجاري من العلماء الأندلسيين الذي شاع علمهم وفضلهم حتى تقدم على علماء عصره في ضبط الحديث وإتقانه، وقد رحل إلى المشرق وبقي هناك ١٥ سنة يدرس مختلف العلوم على يدي كبار العلماء والفقهاء في القيروان ومصر ومكة والمدينة واليمن وغيرها من مراكز العلم، وكانت هذه المناطق قد انتشر فيها التشيع في ذلك العصر، وتأثر بهذه الأجواء وأصبح شيعياً وكان يظهر ذلك ويذكر معاوية بسوء ويقول المقري عنه: (كان إماماً في الحديث عالماً حافظاً للعلل بصيراً بالطرق ولم يكن في الأندلس قبله أبصر بالحديث منه وهو ضابط متقن حسن التوجيه للحديث صدق..).

وقد أخذ عنه الحديث كثير من العلماء والفقهاء الأندلسيين حتى قال أحدهم وهو خالد بن سعيد: (لو كان الصدق إنساناً لكان ابن حيون..)، كما يذكر بأن حيون الحجاري كان شاعراً مميزاً حفظ له المؤرخون كثيراً من أشعاره.

ـ عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني

وهو من أهم شعراء الحموديين الشيعة، وقد اشتهر بقصيدته النونية في مدح إدريس بن يحيى العالي الذي تولى الخلافة سنة ٤٣٤هـ/ ١٠٤٦م، وكان شيعياً عميق الإيمان أظهر ذلك في كثير من قصائده:

البرق لاح من أندرين ... ذرفت عيناك بالماء المعين
لعبت أسيافه عارية ... كمخاريق بأيدي اللاعبين
ولصوت الرعد زجرٌ وحنين ... وبقلبي زفرات وأنين
وأناجي في الدجى عاذلتي ... ويك لا أسمع قول العاذلين

وله أبيات أخرى يمدح فيها الحموديين ويضعهم في التقديس منها:

يا بني أحمد خير الورى ... لأبيكم كان وقد المسلمين
نزل الوحي عليه فاحتبى ... في الدجى فوقهم الروح الأمين
خلقوا من ماء عدل وتقى ... وجميع الناس من ماءٍ وطين
أنظرونا نقتبس من نورك ... إنه من نور رب العالمين

ويعتقد أن ابن مقانا ولد في مدينة لشبونة عاصمة البرتغال حالياً لهذا سمي بالأشبوني.

- إدريس بن يمان اليابس

وهو أبو علي إدريس ابن يمان أو اليماني اليابس وكان من الشعراء المرموقين وقد عاش في جزر البليار في ثالث جزرها التي تسمى اليابسة والتي كانت مشهورة بنبات العرعر، وكانت هذه الجزر في عصر الطوائف تحكمها إمارات إسلامية أما اليوم فهي تابعة إلى الدولة الاسبانية، وقد عاش اليابس في حوالي سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٤٥م، وكان يوماً في حضرة الأمير علي بن مجاهد العامري أمير مملكة دانية Dania، فأنشد قصيدته:

ولرب ليلى قد طرقت وهمتي ... أسري بها إذ ليس يسري كوكب
في معشر شم الأنوف كأنهم ... سيدان رمل أو أسود درب
وكأن نور الصبح راية فارس ... حمراء يتبعها خميس أشهب
وكأن قرن الشمس وجه مجاهد ... لما أنار سناه كادت تغرب

وعندما انتهى من قصيدته اختطف مجاهد القرطاس الذي كتب فيه القصيدة وقربه

من أنفه، وقال وقد سد خياشيمه أن رائحة الشبين (شجر الصنوبر) على شعرك.

ويذكر أن أبو علي اليابس عاش تنقلاً بين الإمارات الشيعية في الأندلس وأنه تشيع فمدح أمرائها وأكرموه، وكانت الإمارات العلوية تتبادل الرسائل الودية بينها وبين الفاطميين في شمال أفريقيا، وكانت هناك رسائل بين الخليفة الفاطمي المستنصر بالله سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م، وبين علي بن مجاهد العامري صاحب دانية Dania.

ـ ابو بكر ابن السراج

وهو محمد بن عبد الملك بن محمد السراج الشنتري، احد ائمة اللغة العربية البارزين. قدم مصر من الأندلس سنة ٥١٥هـ وأقام فيها وأقرأ الناس العربية وكان ذلك أيام الدولة الفاطمية، وقد ذكر المقري بأن أبو بكر ابن السراج كان يدرس في جامع مصر النحو، وربما كان جامع الأزهر الشريف الذي أسسه الفاطميون حيث يدرس فيه مختلف العلوم ويقصده طلاب العلم من كافة أنحاء العالم الإسلامي، وكان يدرس فيه الفقه الشيعي إلى جانب المذاهب الأخرى.

ولابن السراج كثير من المؤلفات منها (تنبيه الألباب في فضل الأعراب) وكتاب في العروض وكتاب (مختصر العمدة) لابن رشيق وتنبيه أغلاطه، وكان أبو بكر قد تأثر بالدعوة الفاطمية وتشيع وتوفي سنة ٥٤٩هـ وقيل ٥٤٥للهجرة.

ـ الشريف الادريسي ـ

يعتبر الشريف الادريسي ابو الجغرافية الطبيعية والبشرية وقد اشرف على اول بعثة علمية عرفتها الدنيا، وقد وضع اكثر من سبعين خريطة للارض، وصنع اول كرة ارضية من الفضة كبيرة الحجم عليها الاقاليم والانهار والطرق وغيرها.

وهو محمد بن محمد بن عبد الله الادريسي ولد في سبتة في المغرب عام ٤٩٣ هجرية/ ١١٠٠ م، وينتمي الى اسرة الادارسة العلوية الذين انشأوا لهم دولة في المغرب سنة ١٧٣ هجرية وهي دولة الادارسة واخرى في الأندلس هي دولة بني حمود سنة ٤٠٧ هجرية.

وعندما بلغ من العمر ١٦ سنة بعثه والده الى قرطبة للدراسة على ايدي علمائها

وفقهائها، وكانت قرطبة يومذاك حاضرة العلم والثقافة في غرب العالم الاسلامي وواحة للمعرفة والفن في اوربا باسرها. واستقر محمد الادريسي في قرطبة عند احد اقرباءه، ثم اخذ يتردد على حلقات الدرس في مسجد قرطبة الجامع ويجلس الى العلماء والفقهاء ومنهم فلاسفة ورياضيون وجغرافيون وفلكيون. ودهش محمد عندما راى اطفال المدارس يدرسون الجغرافية على خرائط ويديرون بينهم كراة ارضية عليها اليابس والبحر والاقاليم والمدن.

انقطع محمد عن الدرس وبدأ بالسفر يجوب ديار الأندلس مدنها وقراها وجبالها وانهارها. فقد زار لشبونة عاصمة البرتغال ثم عبر البحر وزار سواحل انكلترى الجنوبية وسواحل فرنسى الغربية وتعلم اطرافا من الحديث بالانكليزية والفرنسية. وكان محمد تراوده نفسه وهو في قرطبة لزيارة جزيرة صقلية حيث احتلها النورمان قبل ٤٠ سنة من مولده وان له اقارب هناك من الادارسة من بني حمود الذين نزحوا اليها من الأندلس.

وكان العرب قد احتلوا صقلية واستقروا بها مائتين وخمسين سنة وجعلوها ملتقى لحضارتي الشرق والغرب. وكان حكم الملك روجر الثاني قد عمت فيه المساوات والاخاء بين الروم الفاتحين والعرب سكان الجزيرة، وبلغ حرص عقلاء النورمان على بقاء العرب المسلمين في الجزيرة، علماء وتجار وحرفيين ومزارعين وانهم اي النورمان قد تعلموا اللغة العربية قراءة وكتابة.

وضلت اللغة العربية هي لغة الدواوين ورسائل الحاكمين وصارت النقود تسك وعليها شارات الاسلام والنصارى وعبارة ـ لا اله الا الله محمد رسول الله ـ وكانت علامة الملك بالعربية وهي ـ الحمد لله حق حمده ـ كما ابقى النورمان حكام المسلمين وقوادهم في مناصبهم مع شيوخهم وقضاتهم، وهو عكس ما حدث في اسبانيا عندما احتل النصارى الأندلس، حيث اجبروا المسلمين على التنصير ومنعوهم من التحدث بالعربية وصادروا املاكهم وحرقوا المخطوطات العلمية.

وكان الملك روجر الثاني عادلا وحسن السلوك، وكان حريصا ان يضع فوق ثيابه عباءة مطرزة بزخارف اسلامية، ومجالسة العلماء المسلمين كل ليلة يتحدث اليهم في

امور العلم والمعرفة، وقد تشبهه بملوك الشرق في بلاطاتهم وقصورهم، حتى اتهمه رجال الدين من النصارى بانه اعتنق الدين الاسلامي. وهذا ما يذكرنا بملك الحبشة عندما فر اليه المسلمون هربا من اضطهاد قريش واحتضنهم ورعاهم حق رعايته. وقيل انه اسلم، وقيل ان الرسول ـ ص ـ عندما علم بموته ترحم عليه وصلى ركعتين له.

ويذكر بان الملك روجر الثاني سمع عن الادريسي ومكانته العلمية فوجه اليه رسالة يدعوه فيها الى القدوم الى صقلية، وقد حملت الرسالة بعثة من رجاله حيث رافقت الادريسي هو واهل بيته الى صقلية. وعندما وصل الادريسي صقلية استقبله الملك وانزله في قصره في ـ بالرم ـ عاصمة صقلية، ثم اجرى له راتبا شهريا. واخذ محمد الادريسي يفكر بالاسفار والرحلات وتمنى ان ينفق الملك على اسفارة ليؤلف كتابا كبيرا عن الممالك والمدائن واقطار الارض واهلها ويزوده بالخرائط.

ثم طرح الادريسي الفكرة على الملك فرحب بها واقترح عليه ان يختار مائة رجل يسافرون في الارض بدلا منه وبذلك يختصر الوقت وحتى لا تضيع عشرات السنين من البحث والسفر قد لا يتسع عمر الملك والادريسي في انجاز ذلك الكتاب الجغرافي الكبير. وهكذا بدأ الادريسي يخطط ويختار الرجال الاكفاء ويدربهم على المشاهدة في ارجاء صقلية. وعندما اطمأن قلبه اعطى الاشارة فانطلق الرجال في البحر الى اصقاع الارض. وربما كان هؤلاء اول بعثة علمية تجوب ممالك العالم في القرن السادس الهجري ـ الثاني عشر ميلادي ـ.

وبعد عدة سنوات اثمرت جهود الادريسي ورجال بعثته كتابا ضخما عنوانه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق). وهو الكتاب الذي طارت به شهرته بين علماء الشرق والغرب من الجغرافيين على مر العصور. وقد استغرق العمل به ١٥ سنة وتوفى الادريسي في عام ٥٦٠ هجرية / ١١٦٥ م.

وكان الاوربيون اكثر اهتماما بالادريسي من العرب، حيث عرفوا قدره ومكانته في الجغرافية وعمل الخرائط وادب الرحلات فترجموا ـ نزهة المشتاق ـ الى لغاتهم واعادوا نشر خرائطه، وكان لهم الفضل في اصدار اول طبعة من هذا الكتاب في

مطبعة ـ الميدتشي ـ في روما في نهاية القرن السادس عشر ميلادي، وهي اقدم طبعة اوربية ظهرت لهذا الكتاب بحروف عربية، تلتها بالغرب طبعات اخرى. واعتبر المستشرقون كتاب ـ نزهة المشتاق ـ وخرائطة افضل ما كتب في الجغرافية في العصور الوسطى وبعضهم لا يزال يعتبره افضل مرجع الى يومنا هذا عن بعض اجزاء الارض حيث حفظ لنا معلومات وفيره عن اوربا الشمالية والغربية واسكوتلندا وسواحل بحر الشمال وبلاد البلطيق وبولندا ورومانيا وشبة جزيرة البلقان.. ارضا وشعبا واقتصادا وحياة وغير ذلك.

وفي سنة ١٩٥١ طبع المجمع العلمي العراقي خرائط الادريسي عن الكرة الارضية لاول مرة اعتمادا على كتب من كمتبات باريس واكسفورد واستامبول وروما. وقد نادى المستشرق ـ جولد تسيهر ـ العرب في كافة اقطارهم الى طبع هذا الكتاب ـ نزهة المشتاق ـ كاملا بخرائطه. ولكن مع الاسف لحد هذا اليوم لم يقم احد بهذه المهمة العلمية الكبيرة في نشر تراثنا العظيم، بينما كان الاوربيون لهم السبق في ذلك والاستافدة منه فائدة عظيمة.

دولة المرابطون

المرابطون هم جماعة من قبيلة لمتونه،وهي بطن من بطون صنهاجه أعظم قبائل البربر. وكان زيري بن مناد أحد زعماء صنهاجه قد بايع الفاطميين وتشيع وحارب الى جانبهم كما كان ابنه بلكين قد ولاه الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ولاية افريقيا.

وكانت قبيلة لمتونه تسكن منذ عصور قديمة قبل الاسلام في قلب الصحراء ما بين جنوب المغرب والسودان، وكان يسودها الفقر والانفراد وكانوا يعتمدون في قوتهم على لحم الابل ولبنها وكان شعارهم اللثام لهذا فقد عرفوا ـ بالملثمين ـ

وكان يحيى بن ابراهيم الجدالي احد زعمائهم رحل الى المشرق لطلب العلم ثم رجع ومعه عبد الله بن ياسين الجزولي وهو من منطقة السوس الاقصى وقد اتفق الاثنان على تعليم وتثقيف قومهم بتعاليم الاسلام. ووصلا الاثنان الصحراء فأغتبطت بقدومهما لمتونه وكداله.

ولكن لم ينجحا في مهمتهما فقررا الاثنان على مغادرة هولاء والانقطاع الى العبادة والزهد في احد المناطق النائية. وأنظم اليهما عدد من الافراد من كتامه وكداله. وأبتنوا هناك رابطة للصلاة والعبادة. ولما ذاع امرهم وأشتهر وفد عليهم كثير من اشراف صنهاجه ممن اثروا الزهد والعبادة وبدأ عبد الله يعضهم ويثقفهم وسماهم(المرابطون).

وتكاثرت المرابطون واصبح عددهم بضعة الاف، حينئذ خرج عبد الله بن ياسين واستدعي اشياخ القبائل وو عظهم وحذرهم عقاب الله ونصحهم بأتباع احكامه. ولكنه لم يلقى منهم سوى الاعراض. فعندئذ قرر عبد الله وأصحابه اعلان الحرب، فقاتل كداله ولمتونه وضيق عليهم حتى اذعنوا للطاعة وبايعوه على الكتاب والسنة. ثم سار لقتال مسوفه فاطاعوه.وهكذا تعاقب خضوع قبائل صنهاجه واحدة بعد الاخرى حتى خضعوا جميعا.

وجعل عبد الله السلطة والحكم بيد يحيى بن ابراهيم الجدالي احد زعماء لمتونه.وان

كان هو اليه يرجع الامر والنهي ولما توفي يحيى ندب عبد الله مكانه للرياسة يحيى بن عمر بن تاكاكين اللمتوني.

وكان يحيى بن عمر أميرا ورعاً وزاهداً وكان كثير الولاء والطاعة لعبد الله بن ياسين. وقام هذا الامير بعدة حملات وفتح جميع جهات الصحراء وغزا بلاد السودان وانحائها واصبحت حركة المرابطون تأخذ صداها في كل انحاء المغرب.

وكان يومذاك هناك صراع بين الامارات العلوية وبين خلفاء قرطبة الامويين بالاضافة الى تغلغل النفوذ الفاطمي في هذه المناطق الذي اخذ يشتد بعد انقضاء امر دولة الادارسة. واصبح منتصف القرن الخامس الهجري مسرحا للحروب بين الشيعة وخلفاء قرطبة الامويين وكانت هذه الظروف السيئة دعت فقهاء واشراف درعة وسلجماسة وغيرهم يكتبون (سنة ٤٤٤ هجرية) الى عبد الله بن ياسين ويحيى اللمتوني وأشياخ المرابطين يدعونهم الى انقاذ المسلمين من هذه الفوضى العارمة والنيران المحرقة.

وفي سنة ٤٤٥هـ خرج المرابطون من الصحراء على خيولهم في اعداد كبيرة وعلى رأسهم عبد الله بن ياسين ويحيى اللمتوني وقصدوا اولا مدينة درعة واستولوا عليها ثم ساروا الى سلجماسة واستولوا عليها ايضا وهكذا بدأت الجيوش المرابطية تزحف على المدن المغربية وتسقط الواحدة تلو الاخرى. وبعد وفاة يحيى اللمتوني جاء اخاه ابا بكر بن عمر. وفي سنة ٤٤٨هـ سار المرابطون نحو السوس وجعل الامير ابا بكر في مقدمة الجيش ابن عمه يوسف بن ناشفين اللمتوني وسيطروا عليها ثم تقدمت جيوش المرابطين الى جبال الاطلس وقصدوا بلاد المصامدة وفتحوها.

وكانت قد نشبت معركة طاحنة بين جيوش المرابطين والبربر من قبيلة برغواطة وأصيب عبد الله بن ياسين بجروح ثم توفى في نفس اليوم وكان ذلك في الرابع والعشرين من جماد الاول سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م ودفن في مكان يعرف بكريفله او كريفلت على مقربة من تامسنا وأقيم على قبره مسجدا ما يزال مزارا قائما حتى اليوم.

وفي الحال تم اختيار ابا بكر بن عمر اللمتوني خليفة لعبد الله بن ياسين اللمتوني. ثم قسمت جيوش المرابطين الى قسمين يتولى امر احدهما يوسف بن ناشفين والاخر

ابا بكر بن عمر ليتم بها اخضاع المغرب بأكمله تحت راية دولة المرابطين. ولما تمضي عدة شهور حتى سيطر يوسف بن تاشفين على نواحي المغرب الجنوبية والوسطى ثم سار الى فاس وطنجة وغيرها واستولى عليها جميعا.

وتوفي ابا بكر بن عمر اثناء قتاله في الصحراء وخلفه يوسف بن ناشفين في الامارة، ثم استطاع يوسف من القضاء على سائر سلطان الامراء المحليين وبذلك شمل سلطانه جميع الاقطار المغربية حتى تونس شرقاً وحتى المحيط الاطلسي غربا، وهكذا قامت دولة المرابطين.

وفي الوقت الذي اعلن المرابطون دولتهم في المغرب كانت الأندلس مقسمة الى امارات مستقلة وكانت الفتن والحروب قائمة فيما بينها مما اضعفها وزعزع استقرارها وفرق كلمتها واصبحوا شيعا.

وبالتالي اندفع النصارى من الشمال للسيطرة على المدن والحصون والاراضي الأندلسية ولم يكتفوا بذلك وانما فرضوا الاتاوة والضرائب وطلبوا منهم الحصون تلو الحصون دون توقف كما ذهبوا الى أكثر من ذلك حيث تذكر المصادر الإسلامية بان الفونسو السادس طلب من المعتمد بن عباد امير اشبيلية أن تضع ملكة قشتاله حملها في جامع قرطبة.

وهكذا اخذ النصارى يذلون ويهينون الامراء المسلمين ومقدساتهم واخذوا مدنهم وأراضيهم، كل ذلك عمل ضجة في صفوف فقهاء الأندلس وتعالت صيحات الإستغاثة فاجتمعوا مع أمراء الطوائف وقرروا الاستنجاد بالمرابطين لانقاذ الأندلس من خطر النصارى الزاحف دون هوادة أخيراً زحفت جيوش المرابطين على الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين وحدثت معركة الزلاقة بين جيوش المرابطين والجيوش الأندلسية من جهة وبين النصارى بقيادة الفونسو السادس من جهة أخرى، وقد حدث ذلك في رجب ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م، وانتصر فيها المسلمون على النصارى انتصارا تاريخيا قل مثيله وسحقت جيوشهم ولم يقبى سوى نفرا قليلا هربوا مع الفونسو السادس قافلين إلى طليطلة.

والزلاقة بطحاء تقع في إقليم بطليموس في غرب الأندلس حيث حدثت فيها أعظم

معركة وأعظم انتصار في التاريخ الإسلامي ويذكر المؤرخون ان هذا الانتصار ابعد النصارى وحفظ الأندلس وأخر سقوطها ثلاثة قرون، ولكن الخلافات والتناحرات عادت مرة ثانية بين أمراء الأندلس مما اضطر يوسف بن تاشفين ان يعبر إلى الأندلس مرة أخرى ويخضعها إلى حكم المرابطين ويقيد بعض أمراءها وينقلهم إلى المغرب مثلما عمل مع المعتمد بن عباد أمير أشبيلية. وكان استيلاء المرابطين على الأندلس وحكمها في أوائل سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م.

لقد اصبحت الأندلس ولاية تابعة لحكم المرابطين واختفى عصر الطوائف ومنها الإمارات العلوية الشيعية وتغطت الأندلس على الأقل من الظاهر برياح الثقافة الصحراوية فبدأت تتشابه مع الأراضي أو المناطق البربرية وبدأ الأندلسيون يغطون رؤسهم بالعمائم ولم يلبسونها حتى ذلك الحين في الوقت الذي لا يضعون فيه الأغطية اواللثمة السوداء التي وضعها المرابطون على محياهم واخفوا به وجوههم.

وعاشت الأندلس تحت سيطرة رجال الدين من الاصوليين والفقهاء وأخذ الشعراء يشكون من قسوة حكامهم الجدد الذين لا يقدرون قصائدهم مقارنة بزمن كانت الثقافة والشعر يحظى بتقدير بالغ وهو عصر الطوائف.

دولة الموحدين

يعتبر محمد بن تومرت أعظم داعية في العالم الإسلامي والذي قام بحركة دينية واسعة سرعان ما انتشرت في بلاد المغرب وادت الى القضاء على دولة المرابطين وقيام دولة تعتبر من أعظم الدول الإسلامية هي دولة الموحدين الكبرى.

ولبست هذه الحركة ثوب المهدي والتشيع والانتماء الى اهل البيت وحبهم، ويبدو ان معظم الحركات الاسلامية الثورية التي قامت ضد الحكام الجائرين والظلمة كانت ترفع شعار الولاء لآل البيت وتلقب بالثورة المهدية كما حدث مع الدولة العباسية حيث رفع دعاتها الأوائل شعار (يا ثارات الحسين) وانهم جاءوا لنصرة آل البيت من الظلمة الامويين. وهي محاولة منهم لاضفاء شرعية لحركتهم وكسب قاعدة شعبية واسعة وكبيرة في المجتمع.

وتلقب محمد بن تومرت بالمهدي، وتعتبر حركته هي الثانية في المغرب العربي الاسلامي، وكانت الاولى هي حركة الشيعة التي اسفرت عن قيام الدولة الفاطمية في تونس ثم انتقالها الى مصر، وسيطرت على شمال افريقيا وكان معظم ولاتها من البربر مثل بلكين الصنهاجي، وكانت القبائل البربرية هي مادتها الآدمية الاساسية التي استندت عليها عند قيامها في المغرب.

علماً ان غالبية القبائل البربرية قد اعتنقت المذهب الشيعي والسبب يعود هو ان التشيع اخذ صبغة ضد التعصب القومي العربي من جهة ومن جهة اخرى هو ان الحكام الامويين وبعض القبائل العربية تعاملوا بغلضة وشدة مع البربر. مما دفعهم الى تأييد دولة الادارسة والدولة الفاطمية والتخندق خلفهما ضد خلفاء بني امية وبني العباس.

كانت حركت محمد بن تومرت(المهدي) هي حركة مغربية مستقلة بدت في كونها حركة دينية اتخذت اسلوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر شعاراً لها كما ان ابن تومرت ادعى انه يعود نسبه الى اهل البيت وانه يدعو الى الاعتقاد بالمهدي المنتظر عجل الله فرجه

والتي هي من عقائد الشيعة الامامية في الاصول.

ويذكر المؤرخون والمحللون بأن حركة ابن تومرت ليس حركة مذهبية شيعية ضد مذهب اخر كما هو عند الدولة الفاطمية، ويمكن ان نقول عليها في اقصى شيئ انها تدعو الى حب ال البيت والاعتقاد بالامام المنتظرﷺ هذه الشعارات رفعت في بداية الحركة واخذ يعمل ويبشر بها سنين طوال. ولكن بعد ذلك اختلفت الامور وتحولت الحركة الى حركة سياسية ثورية تعمل على الاطاحة بدولة المرابطين.

ومحمد بن تومرت هو رجل من قبيلة هرغه احدى بطون مصمودة الكبرى ولد في ضيعة تقع جنوب السوس الاقصى تسمى ـ بجلي ان وارغن ـ وقد اختلف المؤرخون في تاريخ ولادته منها ٤٧١ و ٤٩١. اما نسبه فأيضاً اختلفوا فيه فمنهم من يقول انه بربري من هرغة ومصمود.

ولكن بعض المؤرخين يذكرون بان نسبه يعود الى ال البيت والا كيف دعى نفسه بالمهدي، فيقولون انه: ابن عبد الله ابن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله.

واما نسبته العربية فهي : محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاه بن رباح بن ياسر بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن ابي طالب عليه السلام.

ويؤكد هذا النسب ابن رشيف في شجرة انساب الخلفاء والامراء. وكذلك يؤكده ابن القطان وابن صاحب الصلاة مؤرخا الدولة الموحدية.

ويذكر انه في سنة ٥٠٠ هـ او ٥٠١هـ/ ١١٠٦ غادر ابن تومرت وطنه في السوس في طلب العلم وعبر البحر الأندلسي ودرس في قرطبة حيناً ثم جاز من ثغر المرية الى المشرق ومر في طريقة المهديه عاصمة الدولة الفاطمية الاولى واخذ بها على الامام المارزي ثم توجه الى الاسكندرية ودرس بها على الامام ابي بكر الطرطوشي وقضى بعد ذلك فريضة الحج ثم سافر الى بغداد وهناك درس الفقه والاصول على يد ابي بكر الشاش الملقب بفخر الاسلام. وغيره

ويذكر بن خلدون بان ابن تومرت تأثر بتعاليم الا شعرية واخذ منهم واستحسن

طريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية والدفاع عنها كما تاثر بتعاليم الغزالي والفقه الشيعي من خلال دراسته في المهديه ومصر.

وكما اتم محمد بن تومرت بغيته في الدراسة في المشرق اعتزم العودة الى المغرب، وكان قد قطع في دراسته وبحوثه مرحلة بعيدة المدى حتى غدا على قول ابن خلدون «بحراً متفجراً من العلم وشهاباً وارياً من الدين». وفي اواخر سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م ركب ابن تومرت سفينة متجهة من الاسكندرية الى المغرب ولما وصل المهدية نزل في احد مساجدها وليس معه سوى ركوة ماء وعصى فتسامع به الناس واقبل الطلاب يقرأون عليه مختلف العلوم وكان اذا شاهد منكراً من آلات الملاهي واواني الخمر بادر الى ازالتها وكسرها ثم اخذ يتجول في المدن الغربية وهو رافع شعار (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) وقد حصل معه مشاكل كثيرة مع ولاة هذه المدن، حيث كلما حل في منطقة زرع فيها الاضطراب، وحمل ايضاً قيام فقهاء وعلماء هذه البلدان الى مناظرته ومناقشته حول اصول الدين وفروع الدين.

وقد حط في مدينة جاية تحت رعاية اصحابه من قبيلة صنهاجة وانظم اليه عدد من المؤيدين منهم عبد المؤمن بن علي بن علوي، الذي شاء القدر ان يكون فيما بعد اعظم اصحاب المهدي واعظم قاداته وخليفة تراثه وامام الموحدين من بعده.

وحل ابن تومرت في تلمسان ثم رحل مع أصحابه الى فارس ثم مكناسي ثم الى مراكش وهناك التقى بامير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين صاحب دولة المرابطين حيث دعى الى الفقهاء لمناظرة ابن تومرت ودار بينهم نقاش طويل حول القرآن والحديث وغيره، واظهر ابن تومرت في ذلك تفوقه على فقهاء المرابطين.

وقد احدث ابن تومرت رجة في صفوف اهل الفقه واضطراب في المجتمع مما حمل امير المؤمنين الى طرده واخراجه من مراكش بعدما سجنه عدة ايام.

ثم اخذ ينتقل من بلد الى اخر وخلال هذه المرحلة انظم اليه عدد كبير من الاتباع حتى وصل قرية أيجليز من بلاد هرغه وهي مواطن قومه وعشيرته ونزل في مكان حصين. وهناك انهال عليه المصامدة من كل فج وكثر صحبه واتباعه.

ويذكر بان محمد بن تومرت لما استقر في موطنه الاصلي اخذ ينشر بين اصحابه

وتلاميذه نظرية المهدي الامام المنتظر واورد احاديث كثيرة في هذا المجال وبعث اصحابه الى القبائل ليبشروا بها.

وينقل بعض المؤرخين بانه في الخامس عشر من رمضان سنة ٥١٥ (ديسمبر ١١٢١) قام ابن تومرت خطيباً في اصحابه واعلن اليهم انه الامام المهدي المنتظر، وبذلك بايعه عدد من اصحابه وجمع من الناس ثم انهالت عليه القبائل البربرية للمبايعة.

ولكن يتسائل الكثير هل ان المؤرخين انصفوا في نقل الخبر وقالوا الحق في ادعاء ابن تومرت بأنه الامام المهدي المنتظر. او ان ذلك جاء تشويهاً لهذه الحركة الاصلاحية من قبل اعدائها.

علماً ان ابن تومرت درس علوم وفقه الشيعة ونظرية المهدي عند اهل البيت، في مصر والمهدية وبغداد، وقد وردت.احاديث كثيرة حول المهدي ﷺ وان هناك علامات لظهوره منها شروق الشمس من الغرب وصيحة في السماء الى غير ذلك.فأذا كان ابن تومرت يعلم ذلك علم اليقين هو واصحابه وتلاميذه فكيف له ان يدعي بأنه الامام المهدي المنتظر.

فأن تومرت المؤسس للحركة الاصلاحية الدينية العميقة كان في مواجهة مع المرابطين الذين كانوا يتبعون المذهب المالكي بينما كان ابن تومرت يدعو الى الاعتقاد بالامامة وحب ال البيت والاعتقاد بالمهدي المنتظر. وكل هذه الامور كانت من معتقدات الدولة الفاطمية الشيعية التي كانت انذاك تسيطر على شمال افريقيا.

لهذا يعتقد ان هناك تشويهاً لحركة ابن تومرت من قبل بعض فقهاء السلاطين ووعاظهم وكذلك بعض المؤرخين الذين يكتبون للسلطان.

كذلك لايستبعد من ان ابن تومرت ادعى ذلك بشكل ما بعدما رأى نجاح دعوته وتكاثر اصحابه واتباعه وشعوره بقوة كبيرة مدوية. ولا كننا بحاجة اليوم الى علم لدراسة سيرة وحياة هؤلاء المؤرخين والفقهاء وخاصة فقهاء السلاطين وحتى نطمئن الى ماينقلونه او يفتون به وهو مايدعى اليوم بعلم الرجال. هذا العلم بحاجة اليوم الى تطوير وتدقيق وشفافية وعدم الانحيازية وتحكيم العقل. كثير من المؤرخين يشيرون بأن ابن تومرت كان منذ الخطوات الاولى لدراسته في المشرق والمغرب كان يضمر

شيئاً غريباً واطماعاً كبيرة دنيوية وسلطوية وانه بدأ بشعار الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم انتهى بأعلانه انه الامام المنتظر الموعود.

وقد سمي المهدي انصاره بالموحدين واعلن الحرب ضد المرابطين وبدأ الصراع بين الطرفين وكانت البداية سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢ م حيث بدأ الموحدين بغزوات عديدة على قواعد وحصون المرابطين في كل اطراف المغرب.

وكانت من اكبر المعارك التي دارت بين الموحدين والمرابطين هي التي حاصرت قوات الموحدين مراكش العاصمة سنة ٥٢١هـ وقيل سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م وفي هذه المعركة انهزم الموحدون وقتل منهم ٤٠ الفاً بل قيل انهم افنوا جميعاً ولم يبقى منهم سوى فلول يسيرة.

من جهة اخرى فان المؤرخين يشيدون بمحمد بن تومرت ويعدونة من اعظم الدعاة المتدينين واغرزهم علماً واشدهم دهاءً واقواهم نفساً واشدهم تأثيرا في النفوس.

وكان خطيباً مفوهاً فصيحاً بالعربية والبربرية معاً يستميل الجميع برائع بيانه ووعضه وكان متمكناً من علوم القران والسنة ومن اصول الفقه والدين وكان شديد التقشف والورع لم يرتدي سوى ثياب الصوف ولم يتحول عن ذلك حينما سما شأنه واقبلت الدنيا عليه.

ويذكر بأن ابن خلدون قد دافع عن محمد بن تومرت ودعوته وانه وصفه بالمهدي والمنقذ وقارنه بظهور الدولة الفاطمية كما رفض الطعن بالمهدي وانه قد اشار الى ان الدولة الفاطمية عند ظهورها قد لاقت من التشويه والاهانه من قبل خلفاء بني العباس في بغداد وان ذلك يتكرر مع ظهور ثورة المهدي في المغرب.

وهنا تنكشف لنا صورة واضحة لحركة ابن تومرت الاصلاحية فأن ابن خلدون يعتقد انه كان يدافع عن رجل ادعى انه المهدي بالمفهوم المنقذ والمصلح وانه من سلالة ال البيت وانه قام بواجبه الشرعي كما يقوم به شخص من سلال ال البيت عليهم السلام وليس المهدي المنتظر عجل الله فرجه الذي ذكرته الاحاديث الشريفة وان لظهوره علامات كونية.

ويذكر ان محمد ابن تومرت قد ترك كتابين اولهما يسمى (أعز مايطلب) وهو يظم

مبادئه ونظرياته في الأصول والإمامة وفي التوحيد والعلم. والثاني كتاب (الموطأ) او (موطأ الامام المهدي) وقد وضعه في العبادات والمعاملات والحدود على مثال موطأ الامام مالك.

وبعد وفاة محمد بن تومرت خلفه عبد المؤمن علي الذي كان اقرب واعز أصحابه واخذ هذا الرجل يجيش الجيوش ويقود المعارك والغزوات ضد المرابطين حتى أضعفها واستولى على مدن كثيرة وانتزعها من المرابطين وكان اخرها مراكش سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٧م عاصمة المرابطين حيث سقطت المدينة بيد الموحدين وبذلك سقطت دولة المرابطين وبدأت مرحلة جديدة ودولة اخرى عظيمة هي دولة الموحدين في المغرب.

اما عبد المؤمن بن علي فتذكر بعض المصادر بان نسبة يرجع إلى أل البيت بانتسابه إلى جدته كنونة بنت ادريس بن عبد الله بن القاسم بن محمد بن الحسن بن علي بن ابي طالب عليه السلام وانه ولد في اخر سنة ٤٨٧ هـ ١٠٩٥م بموضع يعرف تاجرا على مقربة من مرسي هنين شمال تلمسان وكان والده قاضياً في زمانه. ونشأ عبد المؤمن محباً للقراءة والدرس يلازم المساجد لتلاوة القران وكان يعتزم الرحيل الى المشرق ليتابع الدرس ولكنه التقى مع محمد بن تومرت في بجاية سنة ٥١٢ / هـ واقنعه ابن تومرت بالبقاء معه مع حملته ضد المنكر وانه سيعطيه الدروس التي يبغيها.

وقد شاء القدر ان يكون عبد المؤمن هو مؤسس الدولة الموحدية الحقيقي. وتم على يد عبد المؤمن سقوط الدولة المرابطية وسيطر الموحدون على بلاد المغرب ثم توجهوا نحو الأندلس.

وقد جمع عبد المؤمن زعماء القبائل العربية والبربرية وقرر العبور الى الأندلس ونصرة اخوانهم المسلمين فزحفت الجيوش الموحدية وعبرت البحر الى الأندلس بقيادة عبد المؤمن وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥هـ / نوفمبر ١١٦١م.

وقبل العبور امر عبد المؤمن ببناء مدينة عصرية حصينة في جبل طارق وتم له ذلك وبعد انتهاء من بناء المدينة صل فيها وانهالت عليه امراء وولاة الأندلس وشعراءها وقضاتها واشرافها لاعادة البيعة والمديح والثناء. وبقوا في هذه المدينة عشرين يوماً للتداول في امور الحكم ثم امر الخليفة بأنصراف الجميع كما بقى فيها حوالي شهرين

ثم قفل راجعاً الى مراكش.

وكان عبد المؤمن يفكر في الاستعداد للجهاد في الأندلس وفي اثناء ذلك مرض ثم توفى سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣ قبل ان ينفذ خططه ودفن في تينملل ـ الى جانب استاذه المهدي محمد بن تومرت.

وعادت الحياة في الأندلس في زمن الموحدين الى سابق عهدها بعدما عاشت ثقافة صحراوية قاسية فرضها المرابطون على المجتمع الأندلسي. كما عادت روح الادب الأندلسي والثقافة الاصيله ونشط الفكر والعلم. وتهللت الأندلس بمظاهر الفرح وتزينت بالتجديد وأضحت صورة جميلة للحضارة العربية والإسلامية. كما اخذ التشيع يتنفس الصعداء في الأندلس بعدما خنقته ثقافة الصحراء والتعصب.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسة هل ان دولة الموحدين كانت دولة شيعية علوية جاءت على غرار الدولة الفاطمية بأعتبار ان مؤسيسها هم ينتسبون الى سلالة آل البيت وانهم من احفاد الادارسة الحسينية العلوية كما انهم كانوا يدعون إلى الإمامة والاعتقاد بالمهدي المنتظر وحب ال البيت ؟

بعض المحللين يذكرون بأن حركة ابن تومرت ليس حركه مذهبية شيعية ضد مذهب اخر كما هو عند الدولة الفاطمية. وان الموحدين قد تركوا الباب مفتوحاً لكل الوان الفكر والفقه ولم يفرضوا التشيع، ويمكن ان نقول عنهم في اقصى شيء انهم يدعون الى حب آل البيت والاعتقاد بالامامة والامام المنتظر الامهدي (ع)، او بالمفهوم الحديث انهم معتدلين.

وهذه الحرية في الفكر والمذهب عاشتها الأندلس قبل حكم المرابطين وكان العالم والفقيه المنذرين سعيد البلوطي قاضي الجماعة في قرطبه ايام حكم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم كان شيعياً معتدلاً له كتب كثير في اراء المذهب الشيعي وفكر وعلوم اهل البيت ولكنه اذا جلس للقضاء لا يحكم الا بمذهب مالك الذي كان المذهب الرسمي للدولة.وكان الموحدون قد سمحوا بالتطور في الفكر الفلسفي عندما ناقشوا بشكل دقيق في الأندلس الاختلافات العقلية والذهنية بين العقل والوحي والتوحيد مع الله وبني الافلاطونيين الجدد والارسطينيين.

ولقد احتمت الفلسفة في المغرب بظل هؤلاء الموحدين الذين افسحوا المجال امام المناقشات الفلسفية. وفي ظلهم قام القرطبيان ا بن رشد وابن ميمون بتطوير افكارهما وتنميتها وكان الرجلان من انصار المذهب الارسطي المتصوف وصاحب الفلسفة الكلامية.

كما قام الموحدون برعاية وحماية الادب فقد كان بلاط الخلفاء والحكام يغص بالشعراء المادحين لهذا ازدهرت في ظلهم العلوم والآداب وامتلات الأندلس بالقصور الرائعة والمباني الدينية الكبيرة.

هذا الانفتاح الذي سلكه الموحدون في الفكر والفلسفة والادب والعمران كله نجده متشابه مع ماقامت به الدولة الفاطمية الشيعية في مصر وفي تونس من بناء صروح دينية عظيمة تعتبر من المعالم الحضارية لحد هذا اليوم مثل جامع الازهر الذي يدرس فيه مختلف العلوم والاداب لحد هذا اليوم كما انهم هم الذين قامو بتأسيس مدينة القاهرة.

الآثار الباقية

كان عمران المساجد تتحكم في تخطيط المدن وعمارتها وشوارعها حيث تعتبر المركز للمدينة ومنة تتوزع الاحياء وتتفرع الشوارع والساحات العامة كما هو ظاهرة في احياء دمشق وقرطبة حيث تحيط وتلف حول المساجد الجامع الكبير كما يعتبر المركز الروحي والثقافي للمدينة.

وقد صيغة المساجد المدن المفتوحة بصبغة الاسلام اذ ان المسجد الجامع يصبح بمرور الزمن مركز المدينة وقلبها النابض. فمنه تتفرع الطرق الكبرى المؤدية الى ابواب المدينة وحول ساحاته تقام الاسواق والحمامات والفنادق والقياريات وفيه تعقد الاجتماعات السيتسية وتوزع الوية الجيش وتدرس فيه العلوم الدينية وغير الدينية.

فليس من الغريب ان يسيطر الجامع على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المدنية الاسلامية. وليس غريباً ان تتحول هذه المدن التي افتتحها العرب الى مدن اسلامية قلباً وقالباً. لاتختلف عن المدن التي اختطها العرب الابكثرة ابنيتها القديمة الدالة على الحضارات الدراسية القديمة كالجسور الرومانية واقواس النصر والحمامات والاسوار والملاعب وغيرها.

وهكذا كان بناء المسجد الجامع في الاسلام اساس العمران في المدن اسلامية البناء او التي يرد طبعها بطابع الاسلام.

وكان للمسجد دوراً اخر مهم في المدينة الاسلامية فكانت الاسواق العامرة بالثياب والديباج والحوانيت الزاخرة بالعطور وانواع الطيب والصاغة والعطارين تفاح في ساحة المسجد وساحاته المحيطة به وكانت تتفرع من هذه الساحات الطرق الرئيسية للمدينة ودروبها وشوارعها التي تفضي الى الابواب الخارجية وهكذا صار المسجد نقطة تحول في دراسة الطبوغرافية التاريخية للمدينة الاسلامية.

المسجد الجامع بقرطبة :ـ

يعتبر جامع قرطبة من الوجهة الفنية اروع امثلة العمارة الاسلامية على السواء في العصر الوسيط ومن الوجهة العلمية اكبر جامعة اسلامية تدرس فيها العلوم الدنية واللغوية ويغد اليها طلاب المسلمين والعجم للدرس والتحصيل لذلك اشتهرت مدينة قرطبة لاشتمالها على المسجد الجامع.

ويقول المغربي نقلاً عن الرازي « الذي ليس في بلاد الاندلي والاسلام اكبر منه»

ويقول عنه الحميري انه الجامع « المشهور امره والشائع ذكره»

من اجل مصانع الدنيا اكبر مساحة. واحكام صنعه. وجمال هيئه واتقان بنيه. تهمم به الخلفاء المروانيين فزادو فيه زيادة بعد زيادة وتتميماً اثر تتميم حتى بلغ الغاية في الاتقان فصار يحار فيه الطرق ويعجز عن حسنه الوصف فليس في المسلمين مثله تنميقاً وطولاً وعرضاً.

ويقول عنه الادريسي في «نزهة المشتاق في اختلاف الاتفاق»

وفيها المسجد الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقاً وطولاً وعرضاً.

وهكذا اصبح يضرب بهذا المسجد الجامع المثل بالعظمة والاتساع وفي كثرة الزخارف وبالغ المؤرخون العرب في وصفه وكتبو عن تاريخة ووصفة فصولاً طوال تعد من اهم المصادر عن هذا الاثر الخالد الجليل.

ولازال هذا المسجد قائماً حياً كما شيده المسلمون رغم ما حدث عليه بعض التغير من قبل النصارى حيث حولوه الى كنيسة.

ولكن من هو مؤسس هذا المسجد الجامع العظيم ؟ يجمع المؤرخون العرب بأن حنش بن عبد الله الصنعاني وابا عبد الرحمن الحبلي التابعين قد توليا تأسيسه بأيديهما وقوما محرابه وقد احتفظ الامير عبد الرحمن الاوسط بهذا المحراب النفيس عند زيارته لبيت الصلاة فنقلة من موقعه القديم وركزه في مكانه من القبلة الجديدة وكذلك

احتفظ المسجد الجامع في سائر زياداته بأتجاه القبلة الذي حدده حنش الصنعاني رغم انحراف هذا الاتجاه عن الاتجاه الصحيح.

وجاء في كتاب « الرسالة الشريفة في الاقطار الأندلسية » يقول (ورد في الاثر انها ـ القبلة التي ركزها حنش ـ روضة من رياض الجنة ـ وبقيت الى بني امية ـ وبني بنياً اخر لم يهدم المحراب ومشى على حمر خشب الى ان وقف في موضعة اليوم تبركاً به) ولما شاور الخليفة الحكم بن عبد الرحمن الناصر العلماء في تصحيح اتجاه القبلة نحو الشرق عندما شرع في النظر في زيادته الكبرى بالجامع كما فعل ابوه الناصر في قبلة جامع الزهراء، قال له الفقية ابو ابراهيم « ياامير المؤمنين انه قد صلى الى هذه القبلة خيار هذه الامة من اجدادك الائمة وصلحاء المسلمين وعلمائهم منذ افتتحت الأندلس الى هذا الوقت متأسين بأول من نصبها من التابعين لموسى بن نصير وحنش الصنعاني وامثالهم رحمهم الله تعالى وانما فضل من فضل بالاتباع وهلك من هلك بالابتداع فاخذ الخليفة براية وقال نعم ماقلت وانما مذهبنا الاتباع».

ولكن من هو حنش عبد الله الصنعاني الذي اسس مسجد قرطبة واعتبر محرابه الذي شيده روضة من رياض الجنة ؟

يذكر المؤرخون انه احد طلاب الامام علي عليه السلام وانه شارك في معركة صفين وأخذ العلم والفقه منه وكان احد مستشارين موسى بن نصير ومن اعظم قواده الى جانب طارق بن زياد وعلي بن رباح اللخمي وغيرهم.

وكان حنش قائداً مرموقاً اكمل الفتح بعد عودة موسى بن نصير الى دمشق واستمر في تقدمه نحو الشمال وفتح مدينة بمبلونة Pamplona ومعه في ذلك التابعي ابن رباح في اواخر سنة ٩٥هـ/ ٧١٤م.

وعندما تقدم المسلمون الى سرقسطة دخلوها دون قتال حيث طلب اهلها الامان فأستجاب لهم موسى واعطاهم الامان. ولم يكد يستقر المسلمون في البلد حتى قام التابعي حنش بن عبد الله بانشاء مسجد المدينة وقدر لهذا المسجد ان يتسع حتى اصبح مسجداً جامعاً وظل قروناً متوالية منارا للاسلام. وبعد اخراج المسلمين من سرقسطة من قبل النصارى حول الى كنيسة وربما هو الكاثدرائية الحالية القديمة التي

قامت عليه والتي تسمى سيو Seo لان المصادر الاسبانية و العربية تذكر بان هذه الكنيسة كانت في الاصل مسجدا للمسلمين.

وجاء في كتاب (ـ الأندلس ـ قرون من التقلبات والعطاءات، ج٣) بان حنش بن عبد الله الصنعاني كان بناءا معماريا وانه يبدو قد تولى امر سرقسطة حتى توفى فيها وقبره هناك معروف باسم مقبرة القبلة.

كما قام حنش بتأسيس مسجد البيره (غرناطة) وجعله معلماً حضارياً للدين والعلم وبقى منيراً حتى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م وكان حنش كلما فتح مدينة اول عمل يقوم به هو تاسيس مسجدا فيها للمسلمين ويجعل عليه اماماً وفقيهاً وادارة لتعليم الناس الدين ومختلف العلوم.

وكان حنش بن عبد الله الصنعاني غزير الفقه والعلم وكيف الا وهو تلميذ الامام علي ﵇ ولازالت هناك قلعة تقع جنوب شرق ماردةMerida تسمى حنش Alange على بعد ٢٠ كم تقريبا منها.

ونعود الان قليلاً الى مسجد قرطبة حيث كان في الاصل كنيسة تعرف بشنت ينجنت St.vincent التي كانت تقع داخل مدينة قرطبة بالقرب من السور الجنوبي الذي يحيط بها قبالة باب القنطرة فشاطروا نصارى قرطبة في هذه الكنيسة اولاً واقاموا شطرهم مسجداً وبمرور الايام تكاثر عدد الوافدين والمصلين واصبح لا يتسع لاعدادهم الهائلة.

وعند دخول عبد الرحمن الداخل دعى زعماء النصارى في قرطبة لمقابلته وساومهم في بيع نصيبهم من الكنيسة ليدخله في المسجد وتم الامر سنة ١٦٨هـ / ٧٨٤م في تراضي الجميع.

الجامع الكبير في اشبيلية ـ

اقام الموحدون هذا الجامع في القصبة بالاضافة الى جامع ابن عدبس، وكان هذا الجامع يشبه جامع قرطبة في نظامه العام وفي عدد بلاطاته فقد كان يشمل على احد عشر بلاطاً تتجه عمودياً على جدار القبلة وكان البلاط الاوسط اكثر البلاطات

اتساعاً وارتفاعاً وكان طول جدار القبلة يتراوح بين ٤٨ و ٥٠ متراً وكان هذا المسجد مأذنة مربعة الشكل من الخارج ومستديرة من الداخل وكان يبلغ طول كل جانب من جوانبها الاربعة ٥،٨٨ م.

واقيمت مأذنة الجامع من الاحجار التي تخلفت من السور الروماني الذي تخرب عند الفتح الاسلامي للمدينة بدليل انه عثر بين احجار المأذنة المذكورة على حجر نقش عليه لاتينية مما يقطع بأن هذه الاحجار اخذت من اثار رومانية قديمة وكان صحن المسجد مغروساً بأشجار البرتقال لهذا يسمى الصحن اليوم Patio de los naranjos وكانت تتوسطه خصة من الرخام تنبثق منها نافورة.

ولازلت المأذنة قائمة بزخارفها الاسلامية وعمارتها البهية رغم ماحدث عليها من بعض التغيير حيث اضيف الى اعلاها طابقاً ذو طراز مسيحي وعلقت عليه الاجراس.

وكان الموحدون يحملون مناخاً شيعياً طيباً فقد كان مؤسسهم محمد بن تومرت الذي ينتسب اصله الى الادارسة و اهل البيت، يدعوا الى الاصلاح وعقيدة المهدي المنتظر وموالاة اهل البيت وسار خليفتة عبد المؤمن بن علي على نفس المسلك.

وقد قاموا بحماية الاداب بأنواعها المختلفة وفي ظلهم امتلئت الأندلس بالقصور الرائعة والمباني الدينية كالمسجد الكبير بأشبيلية الآنف الذكر ومنارته الخالدة خيرالدا Giralda او دوارة الهواء.

غرناطة :ـ

لما نزلت قبيلة مناد الصنهاجية الشيعية بزعامة زاوي بن زبري في البيرة حوالي ٤٠٣هـ / ١٠١٣م بعدما وزع سليمان المستعين المدن والثغور على القبائل البربرية رأوا انها لاتصلح بموقعها هذا للدفاع وبالتالي فقد اتفق رايهم على ان يبنوا في البسيط الواقع على مقربة من وادي شنيل المنحدر من جبل شلير والذي يسمى اليوم بجبل الثلج Sierra nibada مدينة جديدة حصينة ينزل بها وهكذا تم قيام مدينة غرناطة.

وفي زمن باديس بن حبوس زعيم منادي والذي يعتبر من اعظم زعماء البربر في

عصر الطوائف قد مصر مدينة غرناطة وغدت في عهده من اهم القواعد الأندلسية الجنوبية وانشأ قصبة غرناطة فوق انقاض قلعتها القديمة وسميت باسمها القديم القلعه الحمراء وهو الاسم الذي خلد على العصور وغدا فيما بعد علماً على حمراء غرناطة.

واقام داخل القصبة قصره ومسجده الذي دفن فيه وانشاء سوراً ضخماً حول الربوة التي تقع عليها القصبة.

كما يعود الفضل الى باديس بن حبوس في انشاء قلعة ملقا الحصينة والمنيعة والتي لازالت اثارها قائمة لحد هذا اليوم ولهذا فأن غرناطة بأسوارها وقلعتها وقصرها هي من تاسيس ملول البربر الشيعة من بني مناد الصنهاجية.

اما بني الاحمر فقد جاءوا بعد ذلك وبنو قصورهم ووسعوها وجعلوها اية من اياته الفن المعماري الاسلامي الذي لامثيل له في العالم الاسلامي وسنأتي على ذكرها.

وذكر الدكتور عبد الله عنان بأن ضمن توزيع القبائل الإسلامية على مدن وثغور الأندلس بعد الفتح مباشرة كان العراقيون قد نزلوا ا لبيرة (غرناطة) ومعروف ان العراقيين كانوا غالبيتهم من شيعة الإمام علي عليه السلام وبذلك فان بداية التشييع قد زرع في غرناطة في بداية الفتح الإسلامي.

وتعتبر قصور الحمراء في غرناطة قمة الابداع المعماري ونهايته في اسبانية بل العالمالاسلامي اجمع.

ولكن عندما نشاهد الحمراء من الخارج نفكر في الحرب والقتال والدفاع نتيجة لمناظر الابراج والابواب والاسوار المحصنة، غير انا عندما ندخل داخل العمارة تتغير الامور حيث يكشف الجمال عن روحة ورونقة، والذوق الرفيع عن هويته والابهه والرخاء والرفاه الذي كان يعيشه امراء غرناطة.

لقد عاشت هذه القصور السلطانية اكثر من سبعة قرون في تسابق مع الزمن في عمارتها وجمالها، حيث نشعر اننا امام ابداع فني انتجته عبقرية ذلك الزمن. واليوم يفد غرناطة ملايين السواح للتمتع بهذا الارث و الجمال المميز الذي انتجته ايدي حضارية كانت سيدة العالم. وكانت هذه القصور صفحة مشرقة ودليل على وجود حضارة انسانية مزدهرة امدت العالم يومذاك بكل صنوف المعرفة.

والحضارة الأندلسية لها خصوصية تختلف عن المشرقية والاوربية. وكما يقول الدكتور مؤنس

(انها حضارة عربية اسلامية اوربية) ويقصد في ذلك هو اختلاط المسلمين بالاسبان الاوربيين

من ناحية طرز العمارة والتمدن والمصاهرة.

والعمارة الاسلامية في الأندلس تختلف فيما بينها تبعا للفترات الزمنية والتغييرات السياسية. فعمارة الامارة تختلف عن عمارة الخلافة، وهذان يختلفان عن عمارة الطوائف، وعمارة المرابطين تختلف عن عمارة الموحدين. ولكن الجميع يشترك بنفس الروح ونفس التقاليد، وكذلك في الفلسفة الجمالية. وقصور غرناطة اليوم اصبحت غرة في جبين الدهر واسبانيا حيث يستلهم منها الفنانون والمعماريون افكارهم وخيالاتهم ويغترفون منها اروع العناصر المعمارية لتزودهم

اكثر حسا وشفافية و رهفة بذلك الجمال الخالد الذي ظهر مع العقيدة الاسلامية الخالدة. وهذا الخلود دفع ملايين البشر من السواح وعشاق العمارة والفن للتمتع بهذا الارث الانساني العظيم. حيث تتفجر من هذا الصرح المعماري ينابيع من المجد والسمو الحكيم ووابل من المتعة والفضيلة الانسانية.

عندما دخل العرب شبة الجزيرة وجدوا حضارة قديمة قائمة تعود الى الاقوام السابقة من ايبيريين وفينيقيين وثلتاس وورومان وغيرهم، وقد راوا مدنا قائمة وعامرة، فلم يهدموا شيئا منها ولم يغيروا من معالمها و لا اسمائها، بل عملوا على تنميتها وزيادة عمرانها ، ولكنهم ذهبوا الى الريف واستثمروه خير استثمار وشيدوا المدن والقرى والحصون والقلاع، وبالتالي فقد حولوا شبة الجزيرة الى ارقى بلد في اوربا.

وقد انشاوا مئات المدن والقرى واحتفضت هذه العمران باسمائها لحد هذا اليوم، كما ان الاختلاط والتزاوج الذي حدث بين المسلمين والنصارى انعكس على الثقافة الاجتماعية ومنها مفردات اللغة، فاصبحت كثير من الكلمات مركبة من جزئين احدهما من اصل عربي والآخر لاتيني مثل، مجريط (مدريد) ـ Magerit ـ حيث تتكون من مقطعين الاول مجرى العربي والآخر ايط اللاتيني ـ ويعني الكثير ـ ومثل

قصر آش ـ Caceres ـ و وادي لب ـ اي الذئب ـ Guadalupe، وغيرها.

وكانت الثقافة العربية هي المتفوقة والغالبة على سكان اهل الجزيرة حتى ان الاقليات التي كانت تحت الحكم الاسلامي مثل النصارى كانوا قد تعلموا اللغة العربية وراوا انها اصلح للتعبير من لغتهم اللاتينية. كما ان قسم من النصارى الذين درسوا في الجامعات الأندلسية او الذين انتقلوا الى المناطق الشمالية قد نقلوا معهم الثقافة العربية ومنها الاسماء العربية حيث اطلقوها على بعض القرى والمدن المسيحية الشمالية، والتي لم يكن التواجد العربي فيها الا قليلا.

مثل، قرية نصر Villa nazar في محافضة سمورة Zamora وقرية سلامة Villacelama

في محافضة ليون Leon ومحافضة بلد الوليد Villadolid. وهذه الاسماء مركبة من مقطع عربي وآخر لاتيني. وتعني Villa البلدة او المدينة.

وكان المستعربون ـ Muzarabe ـ من النصارى الذين يعيشون تحت ظل الحكم الاسلامي والمدجنون Almudejr ـ الذين كانوا يعيشون تحت حكم السلطات النصرانية، قد لعبوا دورا كبيرا في تاريخ الأندلس، حيث شكلتا هاتان الطائفتان حلقة وصل في نقل الثقافة والمؤثرات الحضارية من فريق الى آخر، وكانت المؤثرات العربية اشد كثافة واعمق من اسبانيا النصرانية منها في اسبانية المسلمة، اذ كانت الحضارة الأندلسية ارقى واكثر ازدهارا في اروبا اجمع.

وعندما سقطت الأندلس بيد النصارى سنة ١٤٩٢ م وعلى اثرها قامت ثورات عديدة من قبل اهل الأندلس ضد السلطات النصرانية خاصة في منطقة البشرات في غرناطة، عمدت الساطات النصرانية الى نقل اهل غرناطة و كثير من اهل المدن الأندلسية الى المناطق الشمالية وتفريقهم على المدن وذلك لاضعاف قوتهم وتضييع هويتهم ولغتهم وسط المجتمعات النصرانية.

وكان هؤلاء الأندلسيون قد حملوا معهم تقاليدهم وثقافتهم الى المناطق الجديدة التي استقروا بها، خاصة في مجال الزراعة والعمارة، ولذلك نرى الكثير من طرز المدجنين منتشرا في العمارة الدينية والمدنية في مدن ليون وسلمنقة وبلد الوليد وغيرها.

وكانت الفنون الرفيعة والحياة المترفة بين النصارى كانت تقوم على تراث المسلم الأندلسي، وكان المعماري المسلم هو المفضل والمقدم في تشييد المباني الدينية والمدنية، وكان يطلق علية اسم ـ العريف ـ Alarif ـ ولازالت هذه الكلمة تستخدم في المجتمع الاسباني، وكان العريف يشرف على تصميم وتشييد الابراج والكنائس والمصلات وتزيينها بالزخارف الشرقية الطراز.

كما هو ماثل في كنائس مدينة تروال Teruel والتي سميت اليوم مدينة المدجنين (العرب) ـ حيث اصبحت تحت رعاية منظمة اليونسكو العالمية Teruel el mudejar.

كما اشرف العريف على بناء القصور الملكية مثل قصر اشبيلة الفخم الذي امر بتشييده الملك بدرو الاول سنة ١٣٦٤ م.

وهذه امثلة بسيطة من آلاف الامثلة التي ذكرها المؤرخون العرب والاجانب، ولو سمحت لنا الظروف في تدوينها لاحتجنا عشرات الكتب. وخلال رحلتي في البحث والتنقيب المستمر عن العمارة الاسلامية في اسبانية، وجدت عشرات الاسماء والمواقع الاثرية الاسلامية منتشرة في كل شبة الجزيرة، وبعضها قد حرفت اسمائها، ولكن بعض المنصفين من المؤرخين الاسبان والاجانب قد ذكروا اصلها ومعناها.

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر بدا بعض المؤرخين الاسبان في محاولة لدراسة الاسماء العربية

في اللغة الاسبانية وهم: خوسيه انتونيو كوندي ١٧٦٥ ـ ١٨٢٠، و فرانسيسكو كوديرا ١٨٣٦ ـ ١٩١٧، وادواردو سافيدرا ١٨٢٩ ـ ١٨٩٨، و فرانسيسكو سيمونيت ١٨٢٩ ـ ١٨٩٧.

وقد نشر هؤلاء معاجم باللاتيني والاسباني والعربي، وكانت معظم البحوث هي معاجم لتراجم علماء الاندس، وقد تقدمت هذه الدراسات والمواضيع بفضل عدد من اللغويين المتخصصين حول القواعد الصوتية والصرفية التي حكمت انتقال الالفاظ العربية الى الاسبانية.

ويضاف اليهم كوكبة اخرى من العلماء المستشرقين البارزين منهم : ميغيل آسين بلاثيو وهو اول من قدم دراسة واسعة وحديثة حول اسماء الاعلام الجغرافية ذات الاصول العربية، وصدر كتابه سنة ١٩٤٤ بعنوان ـ دراسة للاعلام الجغرافية العربية في اسبانيا ـ Contribucion a la toponimia arabe de espana ـ وقد جمع في هذا الكتاب نحو الف وخمسمائة موضع ارجعها لاصولها العربية والحق بالكتاب قائمة بنحو اربعمائة وخمسين علما رجح انها من اصول عربية.

والعالم المستشرق الاسباني الآخر هو L.de Eguilaz y Yanguaz حيث صدر له كتاب بعنوان ـ شرح مفردات الكلمات الا سبانية ذات الاصول الشرقية ـ Glosario de las palabras espanolas de origin oriente ـ

كم صدر كتاب آخر للعالم المؤرخ الياس تيريس بعنوان ـ Materiales para el arabe ـ estudio de la toponimo hispno سنة ١٩٨٦ ـ مدريد.

وهكذا صدر عدد كبير من الكتب التي تبحث في تاريخ اسبانيا المسلمة واصول الكلمات الاسبانية في اللغة العربية، ولم يختصر ذلك على المؤرخين الاسبان بل ان بعض الاجانب كتبوا عن ذلك مثل المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال.

اما الاستاذ الدكتور محمود علي مكي فيعد كتابه ـ مدخل لدراسة الاعلام الجغرافية ذات الاصول العربية في الاسبانية ـ في مقدمة الكتب المعتبرة، ونأمل ان تتوسع هذه الدراسات لتكون رصيدا ثقافيا آخر يضاف الى ما قدمه السابقون.

وعند بحثي ودراستي لمنطقة اراغون وجدت ان هناك مئات القرى والمدن التي تحمل اسماء عربية او بربرية مثل مدينة بني رزين Albarracin وكانت تدعى هذه المنطقة ـ السهلة ـ

وبنو رزين قبيلة بربرية استقرت في هذه المنطقة واسست المدينة التي تحمل اسمهم، والتي تقع شرق مدينة تروال. ومدينة فراغة Fraga شمال شرق سرقسطة ومدينة مكنسة Mequinez

وزيدين Zaidin و المظفر Almudafar ، وتقع هذه المدن الاخيرة في الشمال قرب محافظة ويشقة Huesca ، ومدينة اوربا Orba في نافارا حيث يعتقد انها تعود الى قبيلة

اوربة البربرية، وغيرها من المدن والتي اشرنا اليها سابقا في موضوع مناطق استقرار البربر.

وكانت المناطق الشمالية من شبة الجزيرة قد استقرت فيها معظم القبائل البربرية بعدما اخذ العرب المدن المهمة و الاراضي السهلة والخصبة وتركوا الهضاب والجبال الى البربر، مما

اثارة الفتن والخصومات والكراهية بين العرب والبربر. وكان في مقدمة من استقر في هذه المناطق القائد البربري منوسة حيث عين واليا على المناطق الشمالية من جبال البرانس او البرانية pirineos شرقا الى المحيط الاطلسي غربا.

ومن المدن التي اسسها العرب مجريط ـ مدريدالعاصمة الحالية ـ في زمن الامير محمد الاول سنة ٨٥٥ م، ويذكر المؤرخون الاسبان بان هناك ـ ٥٣ ـ قرية ومدينة تحيط بمدريد يطغي عليها طراز المدجنين (العرب) كما يضاف اليها ـ ٦٤ ـ موقعا اثريا قديما معظمها تعود الى المسلمين. و من الحصون والمدن التي اسسها العرب والتابعة الى مدريد هي : قلعة عبد السلام (قلعة هينارس الحالية)، وطلمنكة، وبويتراغو، و بيافرانكا، و قلعة الحلفاء وغيرها.

وقد ذكرنا ذلك في كتابي ـ مجريط ـ و ـ فن المدجنين في قرى ومدن محافظة مدريد ـ

ومن المدن الاخرى التي اسسها العرب وادي الحجارة Guadalajara وتبعد ـ ٥٠ ـ كمشرق مدريد وفيها ـ ٣٠ ـ موقعا اثريا وعشرات المدن والقرى القديمة معظمها تعود الى صناعة المسلمين منها خادراكي، و زفرا، و مولينا دي اراغون، وبرهويغا وغيرها.

Brhuega، Molina de aragon، Zafra، Jadraque. ومدينة تروال (وتكتب ايضا طروال) Teruel وتقع الى الجنوب الشرقي من سرقسطة وتعود

في تاسيسها الى قبيلة تروال البربرية، واليوم تعتبر هذه المدينة من اجمل العمارة الاسلامية المدجنية في اسبانيا، ولهذا وضعت تحت رعاية ومسؤلية منظمة اليونسكو التابعة الى الامم المتحدة.

وقلعة رباح Calatrava ، وكانت بلدة صغيرة تقع على الطريق العام بين طليطلة

وقرطبة وقرب المدينة الملكية الحالية، وكانت ترابط فيها قوة عسكرية كبيرة ضاربة مهمتها هو مراقبة المنطقة و التحرك على اي ثورة او تمرد ضد الخلافة الاموية في قرطبة والقضاء عليه. و رباح هو علي بن رباح اللخمي احد قواد موسى بن نصير ومن التابعين.

وهناك مدن اخرى كثيرة اسسها المسلمون في شبه الجزيرة ذكرها عدد من المؤرخون العرب الذين اجادوا وافضوا في ذلك كما. ذكرت منها بشكل متواضع في سلسلة كتبي عن العمارة الاسلامية في اسبانيا، لهذا لا حاجة لذكرها مرة اخرى.

واما المدن القديمة التي تعود الى العهد الايبيري والفينيقي والروماني فهي كثيرة جدا، وقد اطلعت في الفترة الاخيرة على كتاب ـ تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية ـ ١٩٩٨ ـ للمؤلف جان مازيل، حيث يشرح عن الرحلات البرية والبحرية التي قام بها الفينيقيون منذ حوالي اربعة آلاف سنة، وانهم سيطرو على البحر المتوسط قلب العالم القديم واسسوا لهم مراكز ومرافىء ومدنا في كل بقعة وموقعا يحطون فيه، كما تحدث عن الأندلس والآثار الفينيقية ومدنهم ومرافئهم وحروبهم وفنونهم وغيرها. وقد انشأوا مدنا كانت من ازهر مدن العالم القديم، ومنها جادر Gadir و مالاكا Malaka ويرجع تاريخهما الى حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد. فلفظ ـ جادر ـ مشتق من القدرة او من الجدار، ثم جاء العرب واطلقوا على المدينة اسم قادس

وهي بالاسبانية اليوم Gadiz. اما مالاكا فاسمها مشتق من لفظ الملك واطلق عليها العرب اسم مالقة واحينا تكتب ملقا Malaga .

والمعروف ان الفينيقيين شعب سامي وان لغتهم تنتمي الى نفس المجموعة اللغوية التي تنتسب اليها العربية. و قد استمرت دولة الفينيقيين وحضارتهم في اسبانيا الى سنة ٢٠٢ ق. م ثم اندثرت. وفي القرن الاول الميلادي سيطر الرومان على شبة الجزيرة الايبيرية واصبغوا البلاد بالصبغة الرومانية وفرضوا لغتهم اللاتينية على الناس.

وفي اواخر القرن الرابع الميلادي بدأت الامبراطورية الرومانية بالانحلال و الزوال فظهرت القبائل الجرمانية و اخذت تغزوا الممتلكات الرومانية وتسيطر عليها، ومنهم الغوط الذين سيطروا على اسبانيا سنة ٤٠٩ م. ولم يضيف الغوط شيئا الى عمارة الرومان بل بدا التدهور و الانحطاط يدب في كل المدن الرومانية التي

انشأوها حتى مجيء العرب سنة ٧١١ م.

وبالاضافة الى الاثار والصروح المادية و الآثار اللغوية التي تركها المسلمون في اسبانيا نجد كذلك التقاليد والعادات الاسبانية في التعامل في الاسواق وفيها ينادي به البائعة على سلعهم حيث ترجع الى اصول أندلسية. وكذلك في التقاليد الملكية مثلا حفظه الله Dios le guarda que.

وفي مظاهر التحية والعناق وصفة الدعابة والنكتة وغيرها، وهذا ما اكده الباحث والمؤرخ الاسباني Menendez Pidal . كما اشتهر اهل مدينة ليبي الأندلسية اليوم Lepe بالفكاهه حيث ان اهلها يتجاذبون ويتبادلون الاحاديث بينهم ممزوجة بالنوادر والنكات. لهذا فقد صدرت كتب فكاهية عديدة عن هذه المدينة منها ـ نوادر ليبي ـ chistes de Lepe ـ سنة ١٩٩٣. وبالتالي فمن الخطأ القول بان اسبانيا النصرانية قد استطاعت ان تقضي باساليب القمع والتنصير على السلالة العربية الأندلسية حيث لازالت تجري في عروقهم دماء اسلافهم مسلمي الأندلس.

ولهذا فيمكن القول بان الامة الأندلسية غالبيتها تنتمي في اصولها وجذورها ودمائها الى المشرق وحضاراته العريقة.

وخلال بحثي ودراستي للعمارة الاسلامية في الأندلس وجدت عشرات بل مئات الكنائس كانت في الاصل مساجد ثم حولت الى كنائس، و لازالت قائمة بمظهرها وثوبها المزركش الجميل وطرازها المعماري المميز مثل مدينة بويتراغو Buitrago القريبة من مدريد، حيث يشاهد في سقفها مكتوبا اسم الجلالة بالخط الكوفي محاط بنجمة مثمنة الشكل وبلون شذري، كما نجد نفس هذه الزخرفة ماثلة في المحراب تحيط به عدد من الصور الدينية.

وفي كنيسة تاوستي Tauste القريبة من سرقسطة نشاهد على برجها زخرفة اسلامية تمثل خطا كوفيا، وقد ذكر المؤرخون بعد دراستها بانها تشير الى معتقد اسلامي وانه (لااله الا الله محمد رسول الله) وكان هذا البرج في الاصل منارة المسجد، او ان البرج قد شيد في زمن النصارى على ايدي معماريين مسلمين فوضعوا تلك العبارة. وقد كتبت عن هذا الموضوع مصورا ومحققا بشكل واسع في مجلة السياحة الاسلامية التي

تصدر في لندن، العدد ٣٣ سنة ٢٠٠٨.

كما يشاهد في الكاتدرائية الكبيرة El Seo في سرقسطة كتابات عربية، ويذكر بانها كانت مسجدا. وفي طليطلة لازالت بعض المساجد ظاهرة مثل كنيسة سان رومان San Roman

حيث نجد في داخلها كتابات عربية وطراز اسلامي ومحراب، اما مسجد باب المردوم فلازال كما هو في عمارته القديمة و طرازه الاسلامي وحتى الواجهه مكتوب عليها بالخط العربي البسملة و المعماري الذي شيد المسجد،، وفي الفترة الاخيرة شاهدت فيه تنقيبات وحفريات طالت كل مرافقه ومساحته وعلى عمق مترين في بعض المواقع، حتى انني خشيت من انهياره وسقوطه. و في تروال فقد وجدت في كنيسة سانتا مارية Santa Maria كتابات عربية تزين سقفها يضاف الى انها من صناعة المدجنين.

هذه الامثال وغيرها نجدها منتشرة في المناطق الشمالية وبكثافة. اما الأندلس فهي لاتحتاج الى تحقيق وبحث فالشواهد المادية موجودة كنور الشمس مضيئة في كل مكان وهي غنية عن التعريف، وقد كتب عنها اهل العلم والمعرفة من العرب والاسبان والاجانب.

العرفاء

اما بالنسبة الى العرفاء Alarif (المعماريون المسلمون) فقد بقوا يشكلون الرقم الصعب و الاول في الاشراف على بناء المساجد والقصور و الكنائس حتى بعد احتلال النصارى لكل اسبانيا. واشتهر منهم في منطقة اراغون محمد رامي وكان من ابرز المعماريين في القرن الرابع عشر ويعود له الفضل في بناء كاتدرائية El Seo في سرقسطة، او بالاحرى تحويلها من مسجد ذو طراز اسلامي الى كنيسة ذات اسلوب مدجني، كما اشرف على بناء بلاط البابا لونا في مدينة داروكا Daroca. وقد وجد اسمه محفورا على برج كنيسة المعراج في مدينة ثيربيرا.

وظهر في زمن الموحدين العريف احمد بن باسة ـ ١١٨٢ م ـ حيث اشرف على بناء مسجد القصبة الكبير في اشبيلية وعلى صومعته ـ المنارة ـ والتي تسمى اليوم بالخيرالدا، وكانت هذه المنارة تشبه في طرازها منارتين شقيقتين فيما وراء البحر هما منارة جامع الكتبية (او الكتبيين) في مراكش، ومنارة حسان في مدينة الرباط. ويعتبر هذا الجامع من اجمل واكبر المساجد في الأندلس بعد جامع قرطبة. كما اشرف هذا المعماري على بناء مدينة الموحدين في جبل طارق و عدد آخر من قصور الامراء، كما وردت اسماء اخرى من العرفاء الذين شاركوا احمد بن باسة في عمارة الموحدين ومنهم : علي الغماري و ابي الليث الصفار و يعيش الملقي و عبد البر بن هارون.

اما بناء مسجد باب المردوم في طليطلة فيعود للعريفين موسى بن علي البناء وسعادة، وقد وجدا اسمهما محفورا في واجهة المسجد بالخط الكوفي، ولازالت الكتابة ظاهرة وهي (بسم الله الرحمن الرحيم، اقام هذا المسجد احمد بن حديدي من ماله ابتغاء ثواب الله فتم بعون الله على يد موسى بن علي البناء وسعادة فتم في المحرم سنة تسعة وثلاث مائة) ٣٠٩ هجرية / ٩٩٩ م.

وفي مدينة وادي الحجارة برز المعماري المسلم علي ابو ياتي Ali puyate حيث اشرف على بناء بلاط الامراء سنة ١٤٨٠ م مع عدد آخر من العرفاء المسلمين

وكذلك العريف النصراني خوان غواس Juan Guas ، ولازال هذا البناء يتلألأ بطرازه المدجني الجميل وزخرفته الاسلامية التي تطرز عدد من سقوفه وواجهاته.

اما مسجد قرطبة فقد اشترك في بنائه خلال قرنين من الزمان عدد كبير من المعماريين والمزخرفين والنجارين والحدادين والخطاطين والمشرفين وغيرهم، و لكن مع الاسف لم يذكر منهم الا القليل، و منهم سعيد بن ايوب و (٩٦٠ م) و مسرور و نصر (٨٥٥ م) و بدر و فتح و ابن فتح و حاتم و رشيق و احمد بن بدر الدين و غيرهم، ويبدو ان اكثر الاسماء مختصرة على الالقاب حيث وجدت منقوشة على الجدان و الابواب وتيجان الاعمدة . كما اشترك في عمل الفسيفساء صناع ارسلهم ملك القسطنطينية الى الخليفة عبد الرحمن الناصر. غير ان المتتبع الى سير تطور بناء المسجد خلال مائتي سنة يلاحظ ان المؤرخين العرب يركزون على ذكر الامراء والخلفاء الذين قاموا ببنائه و توسيعه.

كما ورد في المصادر العربية ذكر اسماء العرفاء الذين شاركوا في بناء مدينة الزهراء سنة ٣٢٥ هجرية / ٩٣٦ م في زمن الخليفة الناصر وهم : حسن بن جعفر الاسكندراني واخوه علي بن جعفر و عبد الله بن يونس و احمد اليوناني وفتح و افلح و شنيف و سعيد وغيرهم وقد وجدت اسمائم محفورة على الاعمدة والتيجان والقواعد وهي ظاهرة لحد هذا اليوم.

وقد ورد ذكر هذه الاسماء في كتب المؤرخين العرب مثل المقري وابن صاحب الصلاة و ابن الخطيب والادريسي وياقوت الحموي وغيرهم

مكتبة الاسكريال

انشأ الملك فيليب الثاني قصرا في منطقة الاسكريال يعتبر من اعظم الصروح الملكية في اوربا، وفي هذا القصر تقع المكتبة الملكية على الجهة اليمنى منه. وقد زرتها واطلعت على بعض المخطوطات العربية بترخيص من المسؤلين الذين يشرفون عليها، كما يوجد في صالتها الكبيرة نسخة من القرآن الكريم معروضا في صندوق زجاجي ومخطوط بالخط الكوفي المغربي المتعارف علية. ويذكر انه يعود الى سلطان المغرب المنصور السعدي.

وعندما ادركت الحكومة الاسبانية اهمية هذه المخطوطات الثقافية والعلمية والتاريخية دعت احد العلماء الشرقيين الذين يجمعون بين الثقافتين الغربية والشرقية وهو ميخائيل الغزيري اللبناني الاصل ـ Casiri ـ حيث وضع لها فهرسه الشهير ـ المكتبة العربية في الاسكريال ـ والذي يتكون من جزئين صدر الاول سنة ١٧٦٠ م والثاني سنة ١٧٧٠ م و، ويعد ذلك من المراجع المهمة لحد هذا اليوم والتي يستفيد منها الباحثون واهل العلم.

كما توجد مخطوطات اخرى عربية في المكتبة الوطنية العامة في مدريد وفي مكتبة دير ساكرومونتي في غرناطة. وايضا توجد مخطوطات أندلسية اخرى تعود الى الموريسكيين الذين تنصروا و اخفوا اسلامهم وقد استخدموا اللغة القشتالية ولكن بحروف عربية وتسمى هذه الكتابة (بالاخميادو) Aljamiado اي الاعجمية، غير انني سألت احد المثقفين المسلمين الاسبان

عن اصل ومعنى هذه اللغة، فذكر لي انها تعني ـ الجامعة ـ اي التي تجمع بين اللغتين الاسبانية اللاتينية و العربية.

وكان الموريسكيون يدونون فيها الفقة واحكام الاسلام والقرآن والادعية وغيرها. وتوجد الآن نماذج من هذه المخطوطات في المكتبة الوطنية في مدريد.

الفن الأندلسي

لو تأملنا الطراز الفني الأندلسي سواء كان من الناحية المعمارية او الزخرفية لوجدنا انه لايختلف عن الطراز الفني القائم في بلاد المغرب، يضاف الى ذلك ان كثير من العناصر المعمارية انتقلت من بلاد الشام الى المغرب والأندلس، كشكل المآذن المربعة التي نراها في مسجد اشبيلية و قرطبة. ويذكر ان هذا النوع من العمارة جاء من بلاد الرافدين من شكل الزقورات والابراج البابلية.

وايضا انتقل شكل قوس نعل الفرس الذي طوره الأندلسيون وحسنوه والذي نجده ظاهرا في قصر الحمراء، كما دخل الخط العربي الكوفي كعنصر زخرفي جميل يغطي القباب والحيطان بطابع أندلسي مميز. ولم يكتفي الأندلسيون بنقل الطراز المشرقي وانما طوروه وابتدعوا عناصر فنية معمارية جديدة بحيث اصبح يطلق عليها الطراز الأندلسي، كالاقواس المفصصة والمقرنصة و المركبة و المتشابكة. كما ظهر نوع آخر من الاعمدة وهو العمود المزدوج اي المتكون من عمودين رشيقين او اكثروالمتمثل في قاعة الاسود في قصر الحمراء.

وانتقل اسلوب الزخرفة النباتية والحيوانية ذات الحفر العميق من قصر المشتى الى الأندلس وظهر واضحا على العلب المصنوعة من مادة العاج وعلى جدران قصر الحمراء والاحواض الأندلسية، ومن الأندلس انتقلت هذه الى اوربا.

وقد بلغ فن العمارة والترف في الأندلس حد المغالات فاق ما بناه خلفاء اهل المشرق،ومنها ما قام به الخليفة الناصر في بناء مدينة الزهراء حيث كانت مبانيها افخر ما عرفه ذلك العصر وقد استغرق البناء فيها حوالي ١٥ سنة وباشراف ابنه الحكم. وكذلك ما بناه بنو نصر في عمارة قصور الحمراء الذي يعد آية في الجمال والتحدي.

اما مسجد قرطبة الذي انشأه التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني ثم اكمله ووسعه عبد الرحمن الداخل سنة ١٦٠ هجرية ٧٨٤ م، فقد ذكر بان العمل استغرق فيه قرنين من الزمان، فهو اكبر اثر تركه العرب في اسبانيا يحكي قصة امجاد وعظمة الهندسة

المعمارية الاسلامية.

وقد دخل الفن الاسلامي جميع مرافق الحياة ونشط بعد النهضة العمرانية كبناء القصور والمساجد والقباب والمآذن وزخرفتها بالعناصر المتنوعة من نباتية وهندسية والخط العربي، وكذلك زينت الاواني والملابس و السجاجيد حتى وصلت الزخرفة الى قباقيب الحمامات.

وقد ولد الفن الاسلامي في المسجد بين احضان العقيدة الاسلامية، ورغم ان وضيفة المسجد هي العبادة الا انه يبقى المكان الذي تتجلى فيه معاني الفن الاسلامي وفلسفته المحكمة، ولهذا نجد ان هذا الفن يزين المصحف الكريم والسجاجيد واواني الوضوء و المصابيح التي تتدلى من سقوف المساجد والمنابر والمحاريب والمآذن والقباب و غيرها.

غير ان هذا التلاحم لايفسر بان الفن الاسلامي عامل مساعد في شرح تعاليم الدين الاسلامي كما هو عند بعض الاديان الاخرى وانما دوره هنا يشير الى فلسفة الفن الجمالية النابعة من قوله تعالى :

(يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد)

ان مبدأ الجمال في الفن الاسلامي لايخضع الى زمان او مكان انه شكل مجرد بلا تغيير او تحوير انه امتداد بلا حدود ، وقد ذكر بعض المفسرين بان الظاهرة الجمالية للتكرار في الزخرفة الاسلامية تعني السعي وراء الله تعالى وداعية اليه لذلك كان وحدة الرقش العربي بغير بداية ولانهاية، وقد فسر الدكتور زكي محمد حسن هذه الظاهرة بما يسميه ـ كراهية الفراغ ـ هذه الكراهية ظهرت واضح وجلية في اعمال الفنان المسلم خاصة في بلاد المغرب والأندلس.

فنرى قصور الحمراء في غرناطة ان الفنان المسلم لم يترك شبرا واحدا من البناء المعماري الا وزخرفه. وكانت عبارة ـ لاغالب الا الله ـ وهي شعار بني نصر تغطي جدران العمارة متكررة باسلوب جذاب وصياغة طربة عذوبة.

وقد انفرد الفن الاسلامي من بين فنون العالم بالخط الزخرفي الذي استعمل في اوسع

نطاق وفي جميع المنتجات الفنية، حيث حل الخط بمعانيه العقائدية محل الصور التي نراها في معابد الديانات الاخرى. وقد ادرك الفنان المسلم اهمية هذا الخط فجعلوا منه عنصرا تشكيليا طيعا في الزخرفة، فابدعوا في تشكيلاته وتنويعاته، وبعض الاحيان جعلوا نهاياته تنتهي بالازهار او الاوراق النباتية ، فسموه بالخط المزهر والخط المورق، ثم ابتكروا عبارات وكلمات على شكل قباب او مآذن او حيوان.

وكان القرآن هو الميدان الاول الذي اهتم به الخطاطون حيث ذهبوا وزخرفوا عناوين السور ووضعوها داخل اطارات مزينة بانواع الاشكال النباتية والهندسية. كما كان المسجد اول العمارة الاسلامية و الميدان الثاني بعد القرآن الذي نال اهتمام المهندسين والفنانين حيث فاضت فيه ابداعاتهم و عبقرياتهم فاصبح بمثابة المتحف الذي يرى الزائر من خلاله جمال وروح الفن الاسلامي.

وقد ابدع هؤلاء الفنانون بان جعلوا المساجد تتجه الى السماء في قبابها و مآذنها العالية وكأنها في صلاة دائمة، فجائت راسية ضخمة عالية، وقد ظهر ذلك واضحا في اعمال المهندس التركي سنان الذي صمم جامع السلطان سليم سنة ١٥٥٠ م ، وتمتاز هذه المساجد بجمال قبابها المتعددة ومنائرها العالية المضلعة المشوقة والتي تنتهي بمخروط.

ورغم ذهاب اكثر من اربعة عشر قرنا على نشأت الفن الاسلامي الاانه لم يتغير بتغير العصور والانظمة فقد ذهب الخلفاء والسلاطين والحكام وذهبت صروحهم ومدنهم الخيالية التي بنوها، مثل ما حدث لمدينة الزهراء التي حرقها المرابطون وحولوها الى ركام بعدما كانت من اجمل مدن الدنيا. ولكن الفن الاسلامي بقى حي انيقا لا يهتز يزين المساجد والمصاحف والسجاجيد والاواني وغيرها. لهذا فان السر في ديمومة الفن الاسلامي وجماله هو انه يتجاوز الافكار الوضعية والاشكال الظاهرية وانه لم ينحاز الى عصبة او قوم او حزب، وبالتالي فبقائه قائم مع وجود المساجد واماكن العبادة و الفطرة الانسانية التي تهوي الى الجمال والزينة والفضيلة.

وهناك نقطة مهمة يجب الانتباه اليها وهي ان القرآن الكريم اكد على التمتع بمظاهر الزينة والجمال وان احساس الانسان بالجمال واندفاعه نحوه انما هو شعور فطري ينبع من احساس النفس وتوجهها نحو الكمال. فعندما يمارس الانسان المظاهر الجمالية

من اناقة وملبس و زينة وعندما تنعكس هذه الامور على ذاته الباطنية وتتفاعل معها لتكون صورة حية للحس والذوق الجميل فيصبح عندئذ هذا الحس سلوكا و مواقف انسانية تبتعد عن الممارسات الشريرة والقبيحة.

وهذه هي فلسفة الفن الاسلامي الجمالية التي هي الابتعاد عن السلوك الخاطيء والشرير وتغليب الحس الجمالي والمحبة عليها.

وذكر الاستاذ عفيف البهنسي بان الفنان المسلم يسعى من وراء الرقش الهندسي الى التعبير عن النور من خلال الحركة الوميضة حيث جعلت عناصر الرقش من نجوم ثمانية وسداسية مع مضاعفاتها تعبيرا عن مصدر النور. كما ذكر بان السعي وراء النور اي الجوهر هو احد اسباب وحدة الفن الاسلامي وخلوده.

(الله نور السماوات والارض)

وكان الرسول ﷺ **(سراجا منيرا)** كما جعل القرآن **(نورا يهدي به)**

ولهذا فان هذه المعاني القرآنية قد انعكست على اعمال الفنانين فعبروا عنها بالاشكال الهندسية والنباتية من نجوم وازهار جميلة وخطوط بلا نهاية ولا حدود بل انها سرمدية.

وكان الفنان المسلم اراد ان يحاكي الطبيعة بروحها وجوهرها و يبحث عن ماهيتها . ونتيجة لهذا الحس الاخلاقي جعل مقاييس الاشياء روحي وجداني، كما حاول تجريد الاشياء المادية وتجزأتها واحالتها الى خطوط و سطوح ونقاط و الوان.

وهذا ما فعله و يفعله الفنان الاوربي الحديث حيث اخذ ينهج نفس المنهج الذي سار عليه الفنان المسلم الذي بدأ به قبل اكثر من عشرة قرون،امثال بيكاسو وماتيس و براك وبول كلي وغيرهم،فقد اخذ هؤلاء بطريقة تفكيك عناصر الطبيع وتحويلها الى اشكال جديدة بحثا عن المضمون او جوهر المادة.

والملاحظ في الفن الاسلامي هناك صفة ينفرد بها وهي ان ـ فن الانا ـ غير موجودة، حيث تختفي الصفات الخاصة لتذوب في الصفات العامة للفن . بينما نرى ان الفن الاوربي خاصة الفن الحديث انه ـ فن فنانين ـ فعند التأمل في اعمال دافنشي و رمبرات

و بيكاسو نجد ان كل واحد منهم له خصوصية ومعالجة في اعماله ينفرد بها عن غيره من الفنانين، ولهذا فمن السهل معرفة اعمال دالي و فانكوخ وبيكاسو وغيرهم.

فالفن الاسلامي فن عام غير شخصي بمعنى انه فن الامة الاسلامية، وقد اكد الكثير من المؤرخين بانه يكاد يتعذر القول بان هناك في الفن الاسلامي اتجاها عربيا او فارسيا او تركيا او هنديا او غيره.

فالعلاقات المعمارية والزخرفية المتشابهه بين مسجد في سمرقند وآخر في بلاد الشام وبين صحيفة خطت بالخط الكوفي في العراق واخرى في بلاد المغرب وبين قوس مدبب في بلاد فارس وآخر في مصر، كل هذه العلاقات المتشبهه تحدو بنا الى مفهوم واحد وهو وحدة الفن الاسلامي رغم تباعد الزمان والمكان منسجما مع وحدة العقيدة الاسلامية.

وكان الفنان المسلم في اي بلد من العالم الاسلامي لايعمل ليعبر عن الطبيعة او الحقيقة او عن شعوره تعبيرا خاصا، وانما نراه في كثير من الاحيان يتبع الطرق القديمة ويسير على الاساليب الفنية الموروثة. فالفنان الماهر يومذاك هو ذلك الذي يفوق غيره في عملية الاتقان في الزخرفة والرسم. لهذا فان الفن الاسلامي هيمن اكثر من عشرة قرون واتسع باتساع الحضارة الاسلامية، رغم اختلاف القوميات واللغات والتقاليد والعادات محققا هدفه الذي يسعى اليه و هو الوحد في الاسلوب مع الوحد في العقيدة.

ولهذا فان العمارة الأندلسية ليست وليدة الطبيعة الأندلسية وحدها فقد ساعد على نشأتها وتطورها الثقافية المشرقية والحياة المترفة اللاهية والتمازج الذي تم على الارض بين شرقي فاتن نحيل وبين غربي اشقر من اطراف اوربا، حيث امتزجت الالوان والثقافات وانتجت حضارة من ارقى حضارات اوربا في ذلك الوقت الا وهي الأندلس التي لازالت تعيش في جذور و دماء اهلها.

المصادر

١ ـ نفح الطيب / المقري ـ ج ١ ـ ٢ / بيروت ـ ١٩٨٨ .

٢ ـ الروض المعطار / الحميري / تحقيق الدكتور احسان عباس ـ بيروت ـ ١٩٨٤ .

٣ ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق / الادريسي / القاهرة ـ ١٩٩٤ .

٤ ـ جمهرة انساب العرب / ابن حزم / طبعة ليفي بروفنسال ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ .

٥ ـ تاريخ افتتاح الأندلس / ابن القوطية / نشره وحققه عبد الله انيس الطباع ـ بيروت ـ ١٩٥٨ .

٦ ـ فجر الأندلس / الدكتور حسين مؤنس ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ .

٧ ـ الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس / د ـ صالح محمد فياض ابو دياك / الاردن ـ ١٩٨٨ .

٨ ـ الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والأندلس / د ـ عبد الواحد ذنون طه / بغداد ـ ١٩٨٢ .

٩ ـ دولة الاسلام في الأندلس / محمد عبد الله عنان / العصر الاول ـ ١ ـ ٢ العصر الثالث ـ ١ / القاهرة ـ ١٩٩٧ .

١٠ ـ الآثار الباقية في اسبانية والبرتغال / محمد عبد الله عنان / القاهرة ـ ١٩٩٧ .

١١ ـ الأندلس الذاهبة / ضياء باشا / تعريب عبد الرحمن ارشيدات ـ عمان ـ ١٩٨٩ .

١٢ ـ القطوف اليانعة / عبد الله انيس الطباع / بيروت ـ ١٩٦٤ .

١٣ ـ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس / د ـ السيد عبد العزيز سالم / الاسكندرية ـ ١٩٦١ .

١٤ ـ الأندلس / قرون من التقلبات والعطاءآت / الحضارة والعمارة والفنون / مجموعة من المؤلفين / مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة / الرياض ـ ١٩٩٦.

١٥ ـ المسلمون في الأندلس / رينهت دوزي / ترجمة د ـ حسن حبشي ـ ج١ ـ مصر ١٩٩٨.

١٦ ـ الدولة الفاطمية في مصر / د ـ ايمن فؤاد سيد / القاهرة ـ ١٩٩٢.

١٧ ـ الفاطميون / هاينز هالم / تعريب سيد الدين القصير ـ دمشق ١٩٩٩.

١٨ ـ الادب الأندلسي / ماريا خيسوس روبيرا متي / ترجمة اشرف علي دعدور ـ دمشق ـ ١٩٩٩.

١٩ ـ ابن عبد ربة ـ مليح الأندلس ـ / احمد بسج / بيروت ـ ١٩٩٤.

٢٠ ـ تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية / جان مازيل / ترجمة ربا الخش ـ اللاذقية ـ ١٩٩٨. ٢١ ـ مدخل لدراسة الاعلام الجغرافية ذات الاصول العربية في الاسبانية / د ـ محمود علي مكي / منشورات المعهد المصري ـ مدريد ـ ١٩٩٦.

٢٢ ـ مسح ميداني و زيارات متكررة لعدد من الناطق الاثرية الاسلامية القديمة في اسبانيا وتوثيقها بالصور الفوتوغرافية.

ملحق صور



من معالم مدريد الجميلة



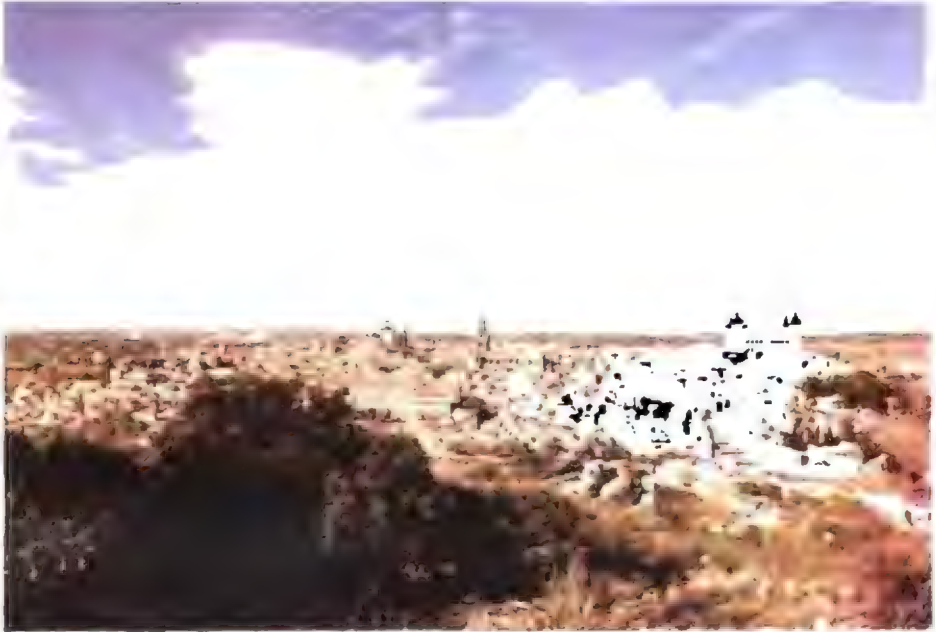


قصور الحمراء

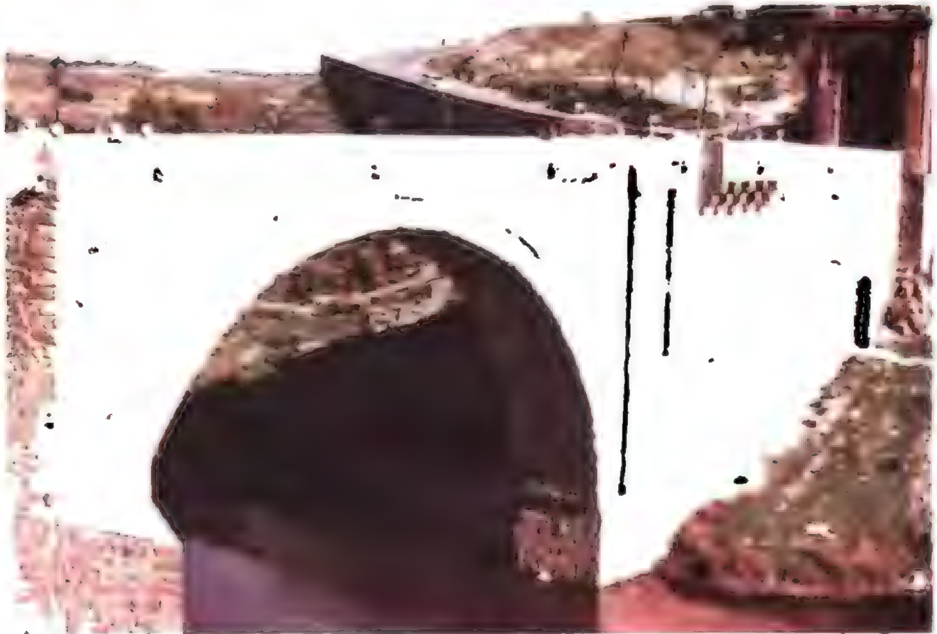




قصر الجعفرية
سرقسطة



منصر عد لمدينة طليطلة



القنطرة العربيه , طليطلة



الجسر العربي القديم / وادي الحجارة



البلاط الملكي، وقد شيد فوق القصر العربي القديم / مدريد



آثار السور العربي
مدريد



زخارف هندسية مع
كتابات عربية منفذة
على قطع خزفية ـ
١٦١٢/ غرناطة

قصر قصبة ملقا







مدينة الزهراء



مسجد باب المردوم / طليطلة



باب المردوم من اليمين وباب الشمس من اليسار وهما من
الآثار الاسلامية الباقية / طليطلة



كاتدرائية طليطلة

داخل الكاتدرائية





Alcazaba de Málaga, sistema defensivo

القصبة / ملقا



قصر اشبيلية



آثار القصر العربي مع
احد الابراج / قوينقة

بنايات عربية القديمة / قوينقة





مدينة بني رزين



مدينة تروال

كنيسة تلوستي
- سرقسطة -

كتدرائية لا سيو
- كانت مسجدا -
/ سرقسطة





قلعة سرية Sistema defensivo /Gormaz (soria)



دير مدينة لاردة conventual de mérida



Alcázar, Tarifa (Cádiz)

القصبة / قليش



torres albarranas /trujillo (cáceres)

قلعة قصر آش



مدينة تروال

قلعة كنشرة / طليطلة





كنيسة [illegible]





مدينة سالم



القلعة/ مدينة سالم



باب طليطلة / المدينة الملكية





خوركيرا اشقر - البسيط



اثار مدينة طلبيرة


مدينة داروكا


الاسكريال



المشرف / البسيط



مدينة انيتشة



ثفرا (زفرا) / وادي الحجارة



ثوريتا (زوريتا) / وادي الحجارة



المسلمة / طليطلة



مويا / قوينقة



قصبة سولينا دي اراغون





قلعة لواري
- وبشقة -



قلعة ايوب مع
احد ابراجها المدجنة





احد المعالم الاثرية الجميلة ذات الطراز الاسلامي في مدينة بالرم
عاصمة صقلية , حيث عاش فيها المسلمون مائتين وخمسين سنة



لاجيرالدا اشبيلية

جامع الحسن الثاني



صندوق مصنوع من الخشب والعاج وبزخارف جميلة/القرن XIV غرناطة



علبة مصنوعة من العاج ومزخرفة وعليها شرائط من الفضة والذهب /نهاية القرن XII /غرناطة



تاج مع قاعدة عمود
معمولتان من المرمر /
٩٦٧ - ٩٧٦/ قرطبة





طبق من الخزف
متحف غرناطة/القرن
العاشر



جرة من الخزف/ متحف
قرطبة - القرن العاشر



قطع قماش من الحرير مطرزة بالذهب تعود لفترة الخلافة الاموية / القرن العاشر





مجموعة من [illegible] مع الشيخ جعفر الاسباني
في غرناطة



الشيخ ابو عدنان مع المؤلف



الميدان الكبير --كانت تسمى ساحة الربض في زمن العرب / مدريد

